"تعرف الطيور كيف تحمي بيضها أما نحن فلا نعرف كيف نحمي أنفسنا"

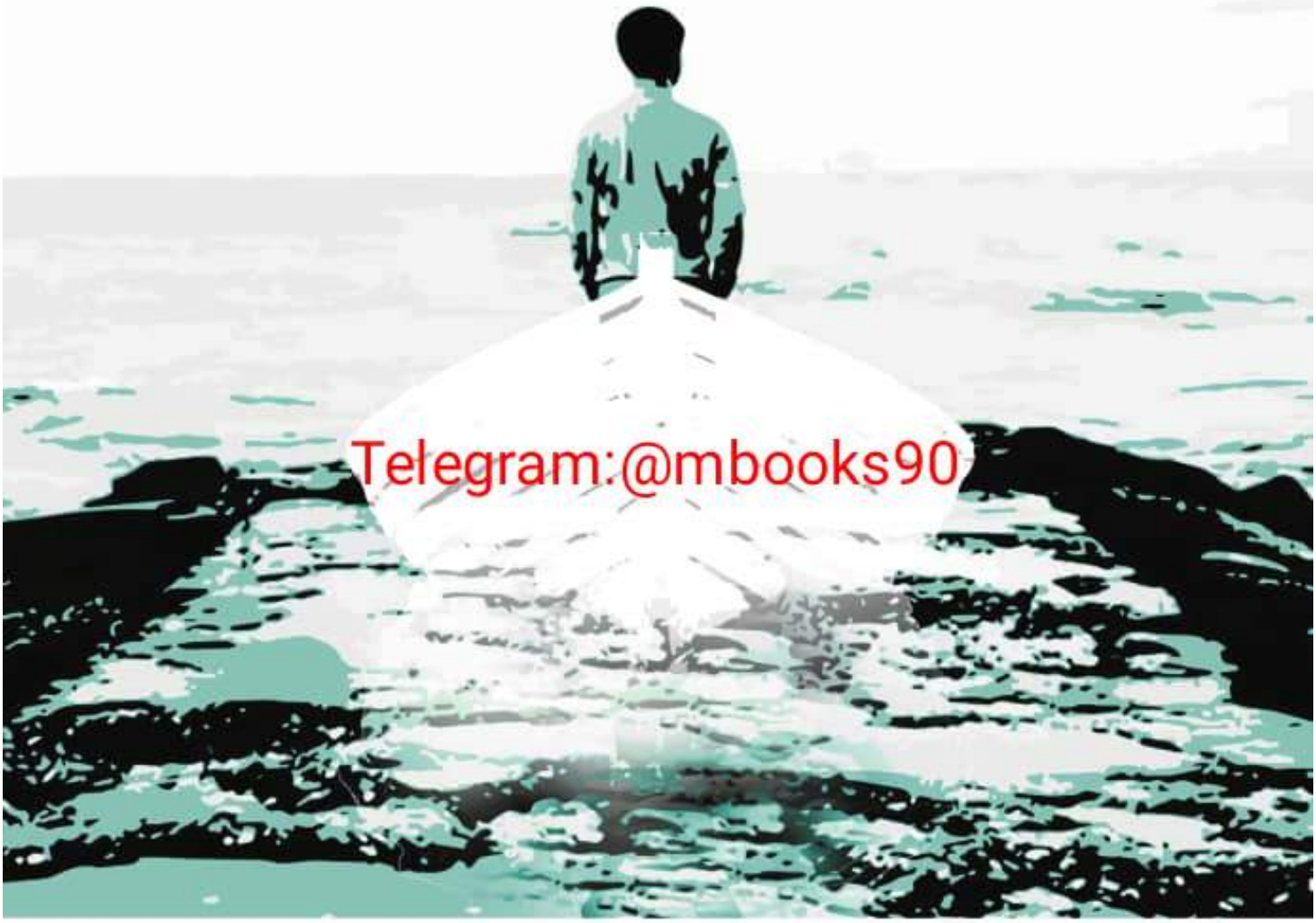

Telegram:@mbooks90

شاطئ العزلة

مارجريت ماتسانتيني

ترجمة: منة ناصر

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«فريد» والظبي

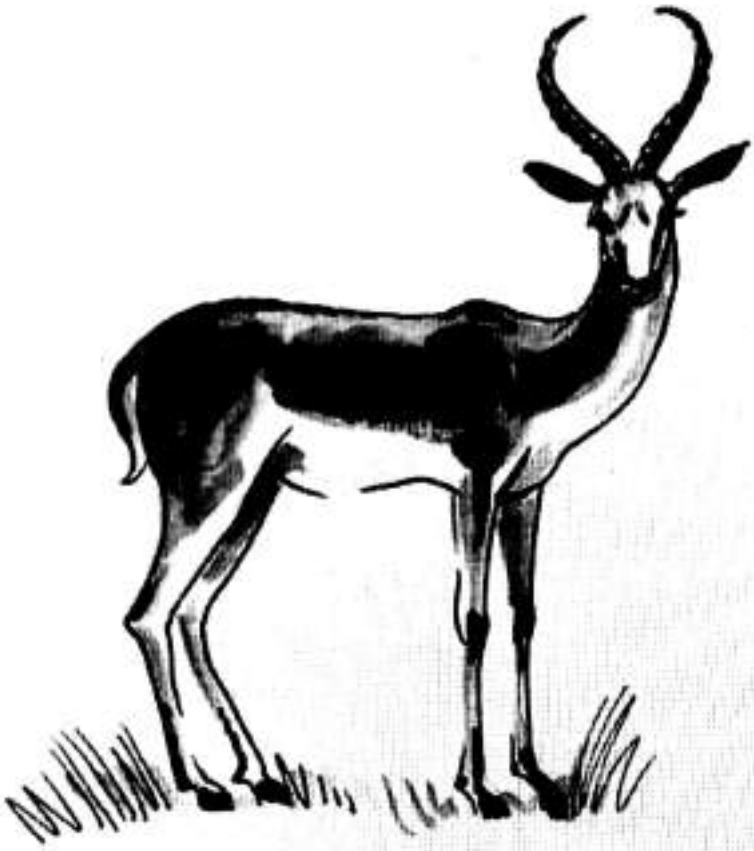

لم يرَ "فريد" البحرَ قَط، ولم تلامس مياهه أقدامَه يومًا..

لكنّه تخيّله عدةَ مرات؛ مرصّعًا بالنجوم مثل رداء الباشا قديمًا، كان أزرق داكنًا مثل جدار "المدينة الميتة" بقرية "جاليريا" القديمة.

Telegram:@mbooks90

اعتاد "فريد" أن يبحثَ عن الأصداف التي دُفنت في الرمالِ منذ ملايين السنين عندما لامس البحرُ الصحراء، وأن يُطارد أسماكَ السحليّة، وأن يتأمّل البحيرات المالحة، وأن يراقب الجِمال العربيّة التي تسير مثل سفنِ القراصنة البالية؛ لأنّه كان يعيش في إحدى واحات الصحراء البعيدة.

كان أسلافه ينتمون إلى قبيلةٍ من قبائل البدو الرُحّل، الذين توقّفوا عند الوديان ومجاري الأنهار المغطاة بالنباتات؛ حيث نصبوا خيامَهم وقاموا برعْي الغنم، وطَهَت لهم زوجاتُهم الطعامَ على الحجارةِ الساخنة، لم يغادروا الصحراء قَط، ولم تكن هناك ثقةٌ في شعوب المُدنِ الساحِليّة والتجّار والقراصنة، بل كانت الصحراء بمثابة

منزلهم المتاح دائمًا، فالرّمال المليئة بالكُثبان الرمليّة الدائرية التي تشبه جلدَ النمر هي بحرهم، كانت آثار الأقدام التي محتها الرمالُ هي كلُّ ما امتلكوه في هذه الحياة، كما اعتادوا في أثناء النهار على تحمُّلِ العطش والجفاف -كما يتحمل النخيل- دون أن يموتوا، وكانت الجمال ترشدهم إلى طريقهم في أثناءِ السير في الطّرق الطويلةِ الوَعرةِ في الصحراء الجوفاء؛ حتى لا يضلُّوا طريقَهم وسطَ الكُثبان الرمليّة.

"لا أحدَ يرانا، ولكنَّ الله يرانا"، دائمًا ما آمنوا بتلك الفكرة.

كانت رياح الشتاء الشمالية التي تضرب الصخور تتخلَّل ملابسَهم الصوفية لتضرب أجسادَهم، مثلما تُضرَب الطبول؛ حيث التصق الجلد بالعظام من شدّة البرد، وكانت الأمطار تهبُّ كما الصواعق، أمّا تصدُّعات الصخور الرمليّة.. فكانت حادةً مثل السيوف التي تجرح الإنسان حين يلمسها.

قديمًا.. اعتاد البدو أن يدفَنوا موتاهم في رمال الصحراء القاحلة. ومرةً أخرى انتقلوا إلى الحدود حيث توجد نباتات النيلة الزرقاء.

في الربيع.. عادت الكُثبان الرمليّة ذات اللون الأصفر الباهت تتكون من جديد في الصحراء الفارغة.

كان صوت رياح الصحراء الساخنة أقرب إلى صوت "ابن آوى"، وأصواتها كصوت أرواحٍ تسير على الرمال هنا وهناك في هبوبها، بدت رياحُ العواصف حادّةً كأسلحة الجيوش، وفجأةً.. تحوّلت الصحراءُ وأصبحت كوحشٍ يبتلع السماء، وكأنّها نهايةُ العالم، فوقع البدوُ تحت وطأةِ العاصفة الرمليّة، وانحنوا على رُكَبهم؛ ليحموا أنفسَهم من أجساد الحيوانات التي تسقطُ عليهم وكأنّهم مُدانون.

ثم توقّفت العواصف، وشرعوا في بناء جدارٍ من الطّين، ومزرعةٍ مُغلقة، وبعد ذلك.. بدأت آثارُ العَجلات تظهر في الرمال.

بينَ الحينِ والآخر.. مرّت قافلةٌ من طريق التّجار القادمين من إفريقيا السوداء، الذين قطعوا الصحراءَ باتّجاه البحر، فجلبوا معهم العاجَ والراتنجات والأحجارَ الكريمة، والرجال المقيّدين لبيعهم كعبيدٍ في موانئ "برقة" وطرابلس.

كان التُجارُ يستريحون في الواحةِ ويأكلونَ ويشربون، فبدأ ظهور بيوتٍ جديدةٍ ذات جدرانٍ من الطُوب اللَبِن المتداخل، وكانت الأسقف مصنوعةً من سعف النخيل، حيث تعيش النساء في الأعلى، منفصلات عن الرجال، على الأسطح المكشوفة، كانت النساء يَذهبنَ إلى البئر وهُنَّ يحمِلن قوارير من الطِين على رؤوسهن، ويطهون "الكُسكُسي" مع أحشاءِ الغَنَم والدَقيق المطحون، ويُصَلِّين في الأديرة، وعند غروب الشمس.. يرقُصن على أسطح المنازل على أنغام الناي، وخصورهُن تتحرَّك مثل الثعابين، أما في الأسفل.. فكان الرجال يصنعون الطُوب ويتاجرون، ويلعبون النَرد ويُدخِّنون النَارجِيلَة.

الآن لم تعُد تلك المدينة موجودة، أصبحت مجرَّد مكانٍ تُغطيه الرمال، ولكن هناك مدينةٌ جديدةٌ أمَر القائدُ بِبنائِها؛ فبناها مهندسون معماريُون أجانب من الشرق، تحتوي تلك المدينة على مباني خَرَسانِيَّة وأسلاكٍ هوائيَة.

انتشر على طول الطريق تماثيل كبيرة للقادة، بالزِيّ النَمَطي للبدو المسلمين، أحيانًا تبدو تلك التماثيل كما لو أنها مُستبدَّة وجادَّة، وأحيانًا أخرى تبدو وكأنها تبتسم بقلبٍ مفتوح.

يجلس الناس على حاوياتِ البنزين الفارغة، الأطفال الهَزِيلين والمسنون يَفتصُون الأعشاب لترطُب أفواههم، والكابلات الضوئية تتدلى من مبنى إلى آخر، ورياح الصحراء شديدةُ الحرارة تُحرك الأكياسَ البلاستيكية، والقمامة التي خلَّفها السُياح في الصحراء.

لا يُوجد عمل، فقط جمع علب المشروبات الغازية والسُكَّرية، بالإضافة إلى التُمور المطلوب تعليبها للتصدير، ولكن كثيرًا من الشباب يهاجرون إلى مناطق النفط، تلك المناطق الكبيرة؛ كنز الصحراء الدائم.

إنهم لا يعيشون في مدينةٍ حقيقية، بل هي مجرَّد تكتلاتٍ بَشَرِيَّة.

يعيش "فريد" في المدينة القديمة، في أحد المنازل الصغيرة ذات الأبواب المتشابهة حول جميع أنحاء الفناء، عند الحديقة البرِّية، والبوابة المفتوحة دائمًا،

يذهب "فريد" إلى المدرسة مشيًا، يركض بساقَيه النّحيفتين اللتين تتقشّران دائمًا مثل عيدان القصب، "جميلة"، والدته، تلفُّ له بعض عيدان السّمسم ليتناولها كوجبةٍ خفيفة.

في أثناء عودته.. كان يلعب مع أصدقائه بعربةٍ مصنوعةٍ من الصفائح المعدنية التي تُستخدم لجزّ العلب، أو بكرة القدم، ويتدحرج مثلما تتدحرج الحشرات في الغبار، يسرق الموز الصغير، وعناقيد من التمر الأسود، يتسلّق بحبلٍ إلى أعلى، في وسط أغصان تلك النباتات المُظلمة.

لديه تميمةٌ حول رقبته، كلُّ الأطفال لديهم واحدة؛ حقيبةٌ جلديّةٌ صغيرةٌ بها قليلٌ من الخرز وبعض زُفات الحيوانات.

قالت له والدته:

- متى تنظر العيون الحاقدة إليك فستُبقيك التميمةُ بأمانٍ.

"عمر"، والده، فنّيٌ يقوم بتركيب الهوائيات التليفزيونية، ينتظر التقاط الإشارة، ويبتسمُ للنساء اللاتي لا يرغبن في تفويت حلقة المسلسل المصري، ويتعاملن معه كبطلٍ يحقق أحلامهن، ولكن "جميلة" تغار من هؤلاء النساء الغبيّات، لقد درست "جميلة" الغناء، لكن زوجها لا يريدها أن تؤدّي عروضها في الأعراس أو المناسبات أو على الأقل أمام الشيّاح؛ لذا.. تغني "جميلة" لـ"فريد" فقط، فهو جمهورها الوحيد في تلك الغرف المليئة بالستائر والسجاد، والتي تفوح منها رائحة أعشاب الشيح والأعشاب العِطرية، تحت الأسقف المصنوعة من الجير.

"فريد" مغرمٌ بوالدته، بذراعيها اللّتين تتحركان مثل أوراق النخيل، وأنفاسها عندما تغني واحدةً من تلك الأغاني المليئة بالحبّ والحزن، فيتسع قلبها لدرجةِ أنها تضطرُّ إلى إحكام قبضته بكلتا يديها، حتى لا يسقط في بحر الأحزان.

والدته في ريعان شبابها، صغيرة، كما لو أنها أخته، حتى أنهم بين الحين والآخر يلعبان لعبة "عريس وعروس"؛ فيمشّط «فريد» شعرها ويضبط وشاحها.

"جميلة" لديها جبينٌ كبيرٌ مستدير، وعيناها مسحوبتان مثل عيون الطيور، أما

شفتاها فتبدوان كثمرتين ناضجتين.

يعمُّ الهدوءُ وقت غروب الشمس، وتكون السماءُ أقرب إلى اللون البرتقالي.

يستند «فريد» إلى سور الحديقة، ينظر إلى قدميه حيث تبرز أصابعه المُتسخة من حذائه، وفجأةً يشمُّ رائحةَ المِسك المُنعشة التي تخترق أنفَه وتقترب منه، عندها فقط يدرك أن حيوانًا ما يتنفّس بجواره، إنه قريبٌ جدًا منه لدرجةِ أنه لا يستطيع أن يتحرّك، ويشعر أنّ قلبه على وشك أن يخرجَ من عينيه؛ يخاف من أن يكون كبشًا بريًا، «الودان».. بقرونه الكبيرة، الذي يظهر في العديد من الأساطير؛ اعتاد جَدهُ أن يقول له: «إنه يظهر في الأفق وسط الكُثبان الرمليّة، وكأنه سرابٌ مخيف».

لسنواتٍ عدةٍ حتى الآن، لم يرَ أحدٌ أيّ «ودان»، لكن الجد «موسى» يُقسم أنه لا يزال مختبئًا في الوادي الأسود بين الأحجار الرمليّة، حيث لا توجد حياة، وأنه غاضبٌ جدًا على كل سيارات الجيب تلك التي تُدمِّر الصحراء وتهزها بعجلاتها.

لكن هذا الحيوان ليس لديه شعرٌ أبيض، ولا قرون ملتفّة، ولا يجزُّ بأسنانه، بل لديه فراءٌ مغطى بالرمال، وقرونٌ رفيعةٌ للغاية تبدو مثل الشجيرات، وينظر إلى «فريد»، ربّما هو جائع.

أدرك «فريد» أنّه ظبيٌ صغير، لكنه لم يهرب منه، كانتا عيناه مفتوحتين على اتساعهما، وقريبتين منه جدًا، وصافيتين، وهادئتين، كان فراؤه يتحرّك، ربما يرتجف، لكنه يشعر بالفضول بحيث لا يمكنه التراجع؛ فيقترب منه «فريد» ببطءٍ وفي يده غصن شجرة، فيفتح الظبي فمه؛ وتظهر أسنانه البيضاء المستوية، ويأكل بعض الفستق الطازج، ثم يتراجع دون أن يتوقّف عن النظر إلى «فريد»، فجأةً.. استدار وقفز فوق الجدار الطينيّ، وركض بسرعةٍ حتى تناثرت الرمال وراءه في الأفق حيث الكُثبان الرمليّة.

وفي اليوم التالي في المدرسة، ملأ «فريد» صفحات الكرّاس برسمِ الظبي، فرسمه بالقلم الرصاص بشكلٍ مُعوج قليلًا، ولوّنه بالألوان المائية.

غرض التليفزيون فيلمًا بطولة «أنتوني كوين»، الذي لعب دور الأسطورة «عمر

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

المختار» وكان الفيلم يروي قصة القائد البدوي الذي قاتل الغزاة الإيطاليين كالأسد، وحينها.. شعر «فريد» بالفخر، وكان قلبه ينبض بقوة؛ لأنّ والده يُدعى «عمر» مثل بطل الصحراء.

يلعب «فريد» لعبةَ الحرب مع أصدقائه بالبنادق المصنوعة من القَصَب، التي تُطلق الفستقَ والحجارةَ الحمراء التي خلّفتها العواصف.

- أنت ميتٌ لا محالة! أنت ميتٌ لا محالة!

يستمرون في القتال؛ لأنه لا أحد منهم يريد أن يلقي بنفسه على الأرض وينهي اللعبة.

يدرك «فريد» أنّ الحرب اندلعت في مكانٍ ما؛ لأن والديه كان يهمسان في وقتٍ متأخرٍ من الليل بأن أصدقاءهما يقولون إن الأسلحة وصلت من الحدود، ورأوها تُفرّغ من سيارات الجيب في الليل، وإنهم أيضًا يرغبون في الحصول على سلاح «كلاشينكوف».

من ناحيةٍ تطلق بعض القنابل المضيئة بجانب المتسول الأصم العجوز، ومن ناحيةٍ أخرى يقفز «فريد» ويفرح بجنون؛ لأن «هشام» أصغر أعمامه - وهو طالبٌ جامعيٌ في «بنغازي» - التحق بجيش الثوار.

يقول الجد «موسى» الذي يرشد السائحين إلى الجبل الملعون، ويعرف كيف يتعرّف على آثار الثعابين، ويفك رموز رسومات الكهف: "هشام" شخصٌ غبيٌ على الرغم من أنه قرأ الكثير من الكتب؛ لأنه التحق بالجيش»، ويقول أيضًا: «القائد رصف طرق ليبيا بالأسفلت والخرسانة، وأصبحت مليئةً بقبائل الطوارق من مالي، وتمّ نقشُ عباراتٍ ساخرةٍ من «الكتاب الأخضر»، الكتاب الذي ألّفه القائد الليبي السابق «معمر القذافي»، على كل جدار، والتقى بمموّلين وسياسيين من جميع أنحاء العالم، ونساء جميلات، كما لو أنه ممثلٌ في عطلةٍ، لكنه في النهاية بدويٌ مثلهم، رجل الصحراء، الذي دافع عن عِرقهم عبرَ التاريخ ودَفعهم إلى الواحات، وهو أفضل من "الإخوان المسلمين»، وقال «هشام»: «ما أجمل الحرية».

يصعد «عمر» إلى السطح ويصلح طبق القمر الصناعي، لأنهم يريدون مشاهدة القناة التي لا يشفّرها النظام، أمّا المدن الساحلية فهي مشتعلة، وهم يعلمون الآن أنّ قائد الولايات المتحدة الأفريقية يطلق النار على الجماهيريّة، نظام الحكم الليبي، أمّا الجد «موسى» فهو الآن وحيدًا في منزله الذي يعتبره مقر سلطته، وعندما علم أن مدينة «مصراتة» مُدمّرة.. مزق صورة القائد من على الحائط، وألقاها تحت السرير.

وصلت البرقيّة، وعلم الجميع بأنّ «هشام» قد فقد بصره بسبب شظية في الوجه؛ فلم يعد يستطيع قراءة الكتب بعد الآن، الجميع يبكون ويصلّون من أجله و«هشام» في مستشفى «بنغازي»، على الأقلّ هو على قيد الحياة، ولم يلقَ حتفه مثل ابن «فاطمة».

في الشارع.. يحاول الناس محو العبارات التي لها علاقة بالقائد من فوق الجدران ويغطّونها بكتاباتٍ تمدحُ الحريّة، ورسومات كاريكاتورية ساخرة عن الفأر الكبير الذي يرتدي ميداليات مزيّفة، أمام المدينة يوجد تمثالٌ مصنوعٌ من الحجارة مقطوع الرأس.

الآن حلَّ الليلُ، ولا يوجد سوى ضوءٍ خافتٍ قليلٍ، لا يتوقفُ عن الاهتزاز كما لو أنه شخصٌ مصابٌ بسعال، أمّا «عمر».. فيفرغُ حقيبةَ التسوّقِ على المنضدة، وبداخلها النقود والدنانير واليورو والدولار، مدّخراته التي جناها له الجد «موسى» من السائحين، يقوم «عمر» بحساب النقود، ثم يزيل حجرًا من الحائط ويُخفيها وراءه، ثم يتحدّث إلى «جميلة» وهو يُمسك بيدَيها بإحكام، أما «فريد» فلم ينم، فهو ينظر إلى عقدةِ اليدين وهي ترتعش في الظلام مثل حبات المطر التي تهطل على ثمرة جوز الهند.

يقول «عمر» إن عليهم المغادرة، وكان ينبغي عليهم فعل ذلك منذ فترةٍ طويلة، فلا مستقبل لهم في تلك الصحراء، والآن هناك حرب، وهو خائف على الطفل.

يعتقد «فريد» أن والده مخطئ؛ لأنه يخاف عليه، فهو مستعدٌ للحرب مثل العم «هشام»؛ فحاول وضع يدَيه فوق عينيه ليرى كيف يعيش من هو أعمى؛ تخبّط قليلًا.. لكنه ليس بالأمر الخطير.

يستند «فريد» إلى جدار حديقته، جاء الظبيّ مرةً أخرى في هدوءٍ وقفزَ قفزةً صغيرة، فظهر بعينيه ذاتا الجفن الكبير، وبؤبؤ العين الواسع، وأذنيه النحيفتين من الخارج والسميكتين من الداخل، وقرونه الصغيرة الملتوية؛ أصبحا أصدقاء الآن، ولكن «فريد» لم يخبر أحدًا بذلك، لكنه كان خائفًا من أن يكتشف أحدٌ ما ذلك الأمر؛ فهو أيضًا خائفٌ من أن يمسكوا به لأنه صغيرٌ وقليلُ الحيلة، وهذه مخاطرة، إنه يقترب جدًا، ويخاطر ويدخل المنطقةَ المأهولةَ، فيتوتر فيهتز فراؤه وعضلاته، وهو مستعدٌ للقفز بعيدًا لا للبقاء، مع ذلك.. عليهما أن يثقا ببعضهما مرةً أخرى؛ فهما ينتميان إلى الصحراء نفسها، لكنهما من فصائل مختلفة، يستند «فريد» على الحائط، وينتظر أن يتنفس الظبيّ من خلال فتحتَي أنفه الداكنتين؛ ليتنفَّس معه في الوقت ذاته، يحرّكُ الظبيّ وجهَه، فهو يريدُ اللّعب، وعند غروب الشمس، يجلس على قدميه الخلفيتين متخذًا وضع والدته الملكي نفسه.

صباحٌ صافٍ، يقوم «عمر» بعمله على السطح؛ يصعدُ إلى الكابلات الكهربائية، وينتظر التقاطَ تردُّد القنوات التي تعرض المسلسلات التليفزيونية، لكنَّ التيار الكهربائي يأتي وينقطع هذه الأيام على مدار فتراتٍ مُتقطعة، النساء لا يردن التفكير في الحرب، بل يُردن البكاء بسبب المسلسل الرومانسي، ويُردن معرفةَ ما إذا كان الرجل الصالح سيعرف مَن ابنه، وإذا كان الرجل السيئ سيسقط في الهاوية بالسيارة السوداء.

رأى «فريد» «عمر» وهو يتراجع ويبحث عن مكانٍ ليضع قدمه، لكنه سقط ونهض واقفًا، صعد رجالٌ آخرون على السطح، يرتدون بدلاتٍ سوداء، وخوذاتٍ صفراء مثل العمال، كانوا يُطلقون النار. إنّهم يستهدفون سيارة «مورانو»، يهربُ الناس من السوق ويصرُخون؛ إنهم القوات الموالية، وكثيرٌ منهم أجانب مرتزقة، تم استئجارهم للحروب في جنوب الصحراء الكبرى، وهم يطلقون النار ويصرخون كما نشاهد في الأفلام. وفي إحدى الميليشيات، جلس رجلٌ نصف عارٍ ليقضيَ حاجته، ربما شرب الكثير من عصير التمر هندي، أو ربما هو خائفٌ والآن يطلق النارَ وهو على هذه الحال.

ظلّ «عمر» ينظر إليهم وهو يحاول أن يتكلّم ليوقفهم، لكنهم وضعوا فوهة البندقية على حلقه وقالوا له:

- إما أن تأتي معنا للقتال أو أنك ستصبح في عداد الموتى.

رأى «فريد» والده ينزلقُ نحو الهاوية وهو حافي القدمين، كان بإمكانك أن ترى أحد جواربه البُنية، تلك التي أصلحتها «جميلة» في المساء. وضعوا مسدسًا في يديه وأطلق «عمر» النار باتجاه السماء، باتجاه الطيور التي لم تكن موجودة، ثم أسقط «عمر» المسدسَ؛ فدفعه الرجل الذي لا يرتدي سروالًا عن السطح.

رأى «فريد» شاحنة «البيك آب» المليئة بالرشّاشات والمدافع، والأشخاص ذوي الوجوه المتّسخة المخيفة، والأعلام الخضراء فوق رؤوسهم، الذين قتلوا الحيوانات ليرهبوا الناس.

لكن لحسن الحظ، لم يكن الظبيّ موجودًا في ذلك اليوم؛ فهو يأتي فقط عندما يكون الجو هادئًا.

انتظرت «جميلة» حتى يحلّ الليل، لم تكن تلك الليلة مظلمة؛ فقد أضاء البدرُ التلالَ الرمليّة وبساتين النخيل، والمباني، والبيوت المصنوعة من الطين ذات الأعمدة المدبّبة.

اختبأ «فريد» في المخبأ الأرضيّ بين أوراق الشاي واللحم المجفف المعلق؛ حيث كانت هناك ومضاتٌ من النيران وطلقاتٌ ناريةٌ في كلّ مكان، وكانت رائحةُ البنزين المحترق تملأ الرمال.

جرّت «جميلة» جثةَ زوجها إلى فناء المنزل وغسلتهُ بماءِ البئر.

لدى «عمر» شعرٌ كثيف، وعندما ابتلّ، أصبح مثل عناقيد العنب. نظّفت «جميلة» أذنيه، وأمسكت شعره وقالت:

- يا لحظك يا حبيبي. ستحملك الملائكةُ أولًا وترفعك إلى السماء.

إنه اعتقادٌ قديمٌ في الصحراء بأن الأبرياء الذين يموتون سيذهبون إلى الجنّة وهم

يُجَزُّون من شعرهم.

في الحدائق المجاورة.. تصلي نساءٌ أخريات ويبكين؛ فبعض العائلات تم استخدامهم كدروع بشرية.

اختفى جثمان «عمر» عند الفجر. تواصلت «جميلة» مع الأجداد من خلف الجدران وطلبت منهم بعض النصائح للسفر.

خرج «فريد» من المخبأ الأرضي وهو يشم تلك الرائحة الغريبة؛ رائحة المرهم المصنوع من عشب الناردين، عطر يوضع للمتوفي بعد غُسله. نظر إلى أثر التراب المحفور حديثًا في الحديقة، والأرجوحة المكسورة التي لم يكن لدى والده وقتٌ لإصلاحها.

جمع أغراضه ودفتر الملاحظات والسترة الشتوية الحمراء.

نظر إلى صورة جده وهو يرتدي العمامة البيضاء، والنظارات، والصندل في قدميه الرفيعتين، ويجلس فوق الجمل في الواحة. كان يكتب القرآن على الألواح، ويعرف الخرافات القديمة والمعارك الكبرى التي عاشها الرومان والأتراك، وتذكّر أنه أخبره عن القلعة الحمراء والقراصنة. كان جده أعرج؛ لأنه قفز على لغمٍ في أثناء الحرب ضد تشاد. وكان يصطحب «فريد» معه أحيانًا إلى الصحراء؛ فرأى «فريد» الحيوانات آكلة الدود، ورسومات الأفيال المنقوشة على الأحجار، ورسومات الظباء المرسومة بالأيدي التي لم تعد موجودة الآن. قال الجدُّ «موسى»:

- إن البدو الحقيقيين ماتوا في الصحراء، وهم محاطون بزوبعةٍ من الرمال ولم يكن باليد حيلة، فإن الله قد أماتهم ليواجهوا مصيرهم. الصحراء كالمرأة الجميلة لا تكشف عن نفسها، تظهر أحيانًا وتختفي أحيانًا أخرى، لها طبيعةٌ يتغير شكلها ولونها؛ فتثور أحيانًا وأحيانًا تكون بيضاءَ صافيةً كالملح، أما الأفق فهو غير واضحٍ ويتحرك مثل الكُثبان الرملية.

رأى «فريد» «جميلة» عندما أزالت الحجرَ وأخذت النقود وربطتها بضمادةٍ حول جسدها، وسمع صوت أسنانها وهي ترتعش. بدأت بحزم أغراضها فوضعت حقيبةً

صغيرةً داخل حقيبة «أديداس».

بحث «فريد» عن الظبيِ من وراء السور الخشبي؛ أراد أن يُودعه، وأن يشعر بأنفاسه تمرُّ من خلال سياج الحديقة.

تحركا وقت الفجر، قبّلت «جميلة» اللوح الحجريّ أمام الباب، وفكر «فريد» في العطر الذي كان يفوح من المنزل في فترات الظهيرة، عندما تخلع والدته وشاحها وترقص حافية القدمين وهي مرتديةً بعض الملابس القصيرة، التي كانت تُظهر خصرها الصغير المليء بزيت الأرجان، ويتحرك كما تتحرك الأرض، ويهتز كما لو أنّ الحياة مَن تهزه، فكان هذا هو أساس المنزل ووسيلة الخلاص.

أخرجت «جميلة» المفتاحَ من الباب وركضا بين المنازل والدخان مثل الفئران. اندلعت الحربُ في الشارع، وملأ الرصاص الأجواء. وقع المفتاح في التراب ولم تنحنِ والدته لالتقاطه.

- لا يهم يا "فريد"، لا نملك الوقت.

- وكيف سيدخل أبي إلى المنزل؟

- سوف يستدعي صانع الأقفال.

لم تخبره «جميلة» أنّ «عمر» مات ودفن كالملاك في الصحراء.

نظر «فريد» حوله.. ماذا حدث لأصدقائه، وللسيارات، والخيام، ومنفذ بيع الآيس كريم، وبائع النظارات الشمسية؟

يبدو مدخل المدينة الآن وكأنّه معرض، الجميع خائفون ويتعرّقون من شعرهم، وأنوفهم تسيل، الجميع يصرخ ويبحث عن شيءٍ ما، يصطفُّون مع الآخرين، وهناك أشخاصٌ يحملون مراتبَ ملفوفةً على ظهورهم، وحقائبَ لا يمكنهم ركوب الحافلات بها.

بحث الكثيرون عن الأمان في مخيّمات اللاجئين عبر الحدود. كانت تعلم «جميلة» أن هذه رحلةٌ خطيرة؛ فالمليشيات الموالية سيطروا على بضعة كيلومترات من

المنطقة، وأحاطوها بالأسلاك الشائكة، وأطلقوا النار على الهاربين.

سوف يذهبون إلى البحر بواسطة شاحنةٍ محمّلةٍ بالطرود والزنوج، والتي بالكاد تتوقف لالتقاطهم.

صرخت «جميلة» وطاردت الشاحنة وهي تقفز وقالت:

- أولًا "فريد".

قفز مثل القرد، ثم هي من بعده.

رأى «فريد» سيارة جيب تدهس رجلًا عجوزًا بعجلاتها المشتعلة، وكان هذا تصوُّره الأول عن الصحراء.

لم يستطع إبقاء عينيه مفتوحتين بسبب الرمال؛ لذلك وَضعت والدته وشاحها على وجهه لحمايته من الرمال، أما الشاحنة فكانت تصعد وتهبط فوق الكُثبان الرمليّة.

ساد الصمت طوال الطريق، لا يوجد سوى صوت المحرك المزعج، إنه مشهد حربٍ، وأيّ حرب! فالبشر تُرحَل كالماشية، ويريدون التبوُّل طوال الوقت.

الأفق محفوفٌ بالمخاطر، ورياح الصحراء الساخنة تحرّك المخلفات وحطام السيارات المحترقة والقمامة، كان الجد «موسى» قد أخبره: «إن كل شيءٍ موجودٌ في الصحراء ينتمي إلى الصحراء، ومِن الطبيعيّ أنه يمكن إعادة استخدامه لغرضٍ آخر، أو لحياةٍ أخرى».

ظهرت بعض الخرقِ المُلوّنة من بين الرمال؛ قميصٌ أو بنطال جينز أزرق يبدو متهالكًا، وملابس متهالكة ملقاةٌ على الأرض، وظهرت لاحقًا بعضُ الأحذية.

ثم ظهرت في الرمال بعضُ الرؤوس التي ضربَتها الحرارة، والشعر، والفكّين، والأيادي النحيفة الجافة التي تشبه نبات الخرُوب.

صرخ جميعُ مَن في الشاحنة ثم صمتوا، تدلّت «جميلة» من السيارة وتقيأت، و"فريد" الذي وضع وشاحًا على عينيه يرى الآن تلك المقبرةَ التي تظهر من خلال ذلك الضوء الشاحب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جميعهم من الزنوج الذين ماتوا بالفعل قبل الحرب ببضعةِ أشهر، لكنَّ الثياب سليمة ولم يخترقها الرصاص.

الكلُّ يعرف ما هذا؛ إنهم اللاجئون من مالي وغانا والنيجر، الذين تركتهم القوافل في الصحراء بعد الاتفاقات الأوروبية لمنع تدفُّقِ هجرةِ اللاجئين.

الله يمدُّ الصحراءَ بالماء والظلّ.

هناك زجاجةٌ بلاستيكيةٌ فارغةٌ، بجانبها يدٌ هزيلةٌ باردة كما يكون الجسد باردًا قبل الموت.

هل يساعدهم الله في تلك الصحراء؟

شعرت «جميلة» بالعطش، بحثت في الحقيبة عن بعض الماء، ثم سكبت الماء على رأس ابنها، ومزّقت الوشاح ووضعت عليه بعض قطرات الماء، وقامت بعصره في فمه لترويهِ، وتقول له:

- اشرب يا "فريد" اشرب.

كما لو أنهما بقيا هما الاثنان فقط في هذا العالم.

أصبح المنزل من خلفهم مهجورًا كبيضةٍ محطّمة.

تتداخل الشجيرات مع بعض البراعم البيضاء وشجيرة الأليمو، كان الهواء أكثر اعتدالًا، وصوت رياح الصحراء الساخنة كصوت قطٍّ متعبٍ، يُصدر مواءً لأنّه يريد العودة.

وفي منطقةٍ ما قبل الصحراء، كانت توجد صفوفٌ من أشجار العنب، وبيوت المزارع المهجورة ذات الجدران الحجرية الجافة المتداعية، مثل تلك الموجودة في ريف «توسكانا"، إنها إحدى القرى الريفية القديمة للمستوطنين الإيطاليين، المليئة بحقول أشجار الزيتون الفلتوية، وأغصانها ممتدة إلى ما لا نهاية.

دخلت الرمالُ في المحرك؛ فتوقفت الشاحنة، والرجل الذي يقودها وجهه مغطّى

بالعمامة مثل شعوب الطوارق وعيناه حمراوان، أما كبار السن فيصرخون ويريدون النزول، وفجأة.. سمعوا صوت انفجارٍ قريبٍ جدًا؛ لدرجة أنه أوقف صراخهم، ولكن السماء هادئة، ومرّ سربٌ من الطيور الزاجلة في شكلٍ ثابت. كان الرجل الذي يقود السيارة يتحدث في تليفونه المحمول وصرخ باللهجة التماشقية، «فريد» لا يفهم شيئًا.

كانت الشمس قد أشرقت لتوّها، فقد كانوا ينتظرون منذ ساعتين. قام "فريد" و"جميلة" بجولةٍ في المدينة المهجورة بحثًا عن بعض الأطعمة، وصلا إلى الساحة ودار البلديةِ القديمةِ، ثم إلى الكنيسة، حيث السقف منهارٌ في الوسط، وحنية الكنيسة مشوّهة، والأرض مليئةٌ بالتراب والطوب، فاستندا على الحائط وتشاركا بعض الخبز. صلّت «جميلة» رغم أن المكان ليس بمسجدٍ لكن لا يهم؛ فهو مكانٌ للعبادة حيث صلى فيه الناس وتحدّثوا إلى الله.

خلع أحد الزنوج حذاءه، وكانت إحدى قدميه منتفخة مثل الخروف، فقد جاء من مدينة «سافاناه" مشيًا منذ أيام، وهو خائفٌ من الفرغرينا. ثم اقترب منه شخص صوماليٌ وقام بتسخين السكين بالقداحة، ومررها على قدم الزنجي، ثم لفّها بورقة شجر، فصارت قدماه مثل التمر قبل أن يغلّف ويوضع في الصناديق للشياح.

واصلوا المشي مرةً أخرى.

سمعوا صوت محركٍ، ثم ظهرت في الأفق دراجةٌ نارية.

ظهر رجلٌ سمينٌ يرتدي قميصًا مطبوعًا عليه زجاجة «بيبسي كولا» ومكتوبًا تحتها: "اشرب بيبسي".

نظر «فريد» إلى ذلك القميص الذي جعله يشعر بالعطش ويشتاق لعالمٍ آخر.

هذا الرجل هو من سيتولى مسؤولية المجموعة، وسيكون هو مرشدهم إلى البحر.

اتّبع الجميع تلك الدراجة التي تشبه الجزّار، جرّ الزنجيُ قدمه المغطاة بالضمادات المصنوعة من أوراق الشجر. ترك أحدهم مرتبةً ووعاءً ثقيلًا للغاية، وساروا في صمتٍ تام، لم يتحدث أحد، كان يوجد صوت أنين المرأة الحامل فقط، على الرغم من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنها تبدو أقوى من الرجال، لكنها تخفي حملها خلف ملابسها السوداء. ربما تخشى ألا يسمحوا لها بالذهاب معهم.

عبرت مجموعةٌ من الصراصير الكثبان الرمليّة، سارت فوق آثار أقدام البدو المتجولين قديمًا؛ وهو خطٌّ من آثار الأقدام التي محتها الرمالُ عندما انتقل البدو لمثواهم الأخير، ذهبوا بلا وجهةٍ محدّدة.

لم يرد الجد «موسى» الرحيل، فظلَّ في الحديقة واضعًا قدميه في الإناء، ويشاهد النسور تقوم بالجولات بحثًا عن السحالي في الصحراء.

"جميلة" لم تكن مستاءة. كانت تميل إلى الأسفل قليلًا ثم تتنفس من جديد فوق المياه الضحلة. حملت «فريد» على كتفيها وهو ملفوف بقطعةٍ من القماش، كما كانت تحمله وهو صغير.

"جميلة" شابةٌ في أوائل العشرينيات؛ أرملةٌ وحيدةٌ مع طفلها وتعتبر الصحراء ملاذهما.

كان «فريد» يرتدي تميمةً حول رقبته.

تغيّر الأفقُ، وأصبح مليئًا بالخضرة وأشجار الخرّوب، وصفوفٍ من نباتات الدفلة المزهرة.

إنها رائحةٌ بريةٌ وعميقةٌ، لم يشمها «فريد» قط.

أهي رائحة البحر بمساحته الواسعة ومياهه الزرقاء؟

ركض الجميع ورؤوسهم متدلية بين غصون النباتات الشائكة، نزل «فريد» عن ظهر «جميلة» وتركها وركض وتدحرج بين الرمال وأشجار الأثل، إنها المرة الأولى التي يغادر فيها الصحراء.

كان هناك رجلٌ يجمع المال على الشاطئ، وآخر يرتدي عمامةً وملابس المدينة، وسترةً خفيفةً، والعرق يسيل على رقبته وكتفيه، ورجلٌ سمينٌ يصرخ، وزجاجة «البيبسي كولا» المطبوعةُ على ملابسه تهتز فوق بطنه. حتى لو كان الوضع تحت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السيطرة، عليهم أن يسرعوا، فهم الآن في العراء، الموالون من مدينة «بريتوريا» لديهم أوامر بإطلاق القوارب، فالقائد أراد أن يمتلئ البحر الأبيض المتوسط بالبؤساء العاجزين؛ لجعل أوروبا ترتعد، فهذا أفضل سلاحٍ يمتلكه؛ الفقراء العاجزين بالنسبة له كالديناميت، وهذا يوضِّح رياء الحُكام.

احتجَّ الجميع على الشاطئ، كانوا في حالةِ صدمةٍ بسبب السفينة الصدئة الكبيرة، الموجودة في الماء، التي تبدو وكأنها حافلةٌ مقلوبة وليس زورقًا سريعًا.

صرخ الجميع وهزُّوا رؤوسهم معترضين.

الثمن الذي دفعوه باهظًا بالنسبة لهذا القارب القديم المحطم.

قال الرجل الذي يرتدي ملابس المدينة:

- هل كنتم تتوقعون سفينة سياحية؟

وأضاف قائلًا وهو يصرخ:

- انتهى الاتفاق، ولن أبحر بمجموعةٍ أخرى من الهاربين الأغبياء.

ثم قال وهو يشير بيديه:

- عليكم الذهاب وإفساح الطريق، والرجوع إلى الغابة والصحراء.

وبصق على الأرض وقال:

- أنا لا أملك وقتًا لِكَيِ أضيِّعه مع تلك الجرذان.

وألقى الأموال على الرمال وركب سيارة الجيب، فأخذهم شاب وظلَّ يطارده، وقال له عبر نافذة السيارة:

- بالله عليك، هناك الكثير من النساء، وهناك أيضًا امرأةٌ حامل.

لكن الرجل لم يستمع.

فقال الشاب للرجل:

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أليس لديك أطفال؟

ففتح الرجل الباب بقوةٍ وصدم الشاب، ثم نزل وأخذ المال ووضعه في محفظته، وقال:

- الآن، لا أريد أن أسمع صوتًا.

سار هذا المُهرِّبُ على الرمال بحذائه اللامع، وفتح صندوق سيارة الجيب، وألقى بعض زجاجات الماء البلاستيكية على الرمال، وقال:

- هذا من أجل ألا تموتوا عطشًا.

شكره الجميع، وأخذت «جميلة» زجاجةً من هذا الماء الساخن ووضعتها في الحقيبة.

نظر «فريد» إلى البحر، كانت تلك المرة الأولى في حياته التي تلامس فيها أقدامه مياه البحر، فأخذ القليل بين يديه وشربه ثم بصقه.

تخيّل أن البحر كبيرٌ، ولكنه ليس كبيرًا كالصحراء؛ فهو ينتهي حيث تبدأ السماء، عند ذلك الخط الأفقي الأزرق.

اعتقد أنّه يمكن أن يُبحر بداخله مثل سفن القراصنة، لكنه الآن مبتلٌ وينزلق للأسفل. كانت الأمواج تتحرك ذهابًا وإيابًا مثل ملابس والدته المعلّقة، إذا ذهب بعيدًا تطيرُ خلفه.

رفعت المرأةُ الحامل ملابسها، ودخلت إلى الماء حتى ابتلّت ووصلت المياه إلى حلقها. فتحت فمها الصغير ذو الأسنان الكبيرة فأصبحت تشبه الناقةَ التي تخاف من النار.

نهض الجميع وبدأوا في التحرُّك والتسلُّق.

تحرَّك القاربُ ودخل إلى الماء، كان هناك صبيّان من مالاوي أذكى من الآخرين، يتجولان مثل البحّارة حفاة القدمين. تفقدا هيكل السفينة من الداخل، وفتحا خزانات الوقود الموجودة في المؤخرة وقاما بشمِّها؛ أرادا التأكد من أنها مليئةٌ بالفعل

بالوقود، ثم صرخ الرجل البدين قائلًا:

- أنتما عبدان إفريقيان من أبناء الجواري اللاتي هربن من مخيمات الواحات، غير موثوقٍ بكما.

وضبط نظام تحديد المواقع على المسار الصحيح ثم قفز إلى أسفل، فتبلّل حتى خصره، وضرب هيكل السفينة قائلًا:

- حظٌ سعيدٌ أيها الأوغاد.

نظر «فريد» إلى البحر مرةً أخرى، وجده شفافًا ولامعًا مثل البلاط الخزفي. بحث عن الأسماك والعظام، وبدأ يتطلّع إلى الحياة الجديدة. قبّلته «جميلة» وداعبت شعره، فسألها:

- كم من الوقت ستستغرق الرحلة؟

فأجابته:

- القليل من الوقت، حتى انتهاء التهويدة.

غنت «جميلة» بصوتها العذب وأخذت تصفّر وتقلّد صوت «الزكرا"، المزمار المستخدم في جنوب وغرب ليبيا. وصل صوتها إلى قاع البحر، ثم نامت ومالت برأسها فتذكّر «فريد» الظبي. نظر «فريد» خلفه ورأى المساحات الفارغة بين هؤلاء الأشخاص. اختفى الساحل عن الأنظار، يوجد فقط البحر الذي ترتفع مياهه وتهبط.. تذكر منزله، والأرجوحة، والبلاط الخزفي بتصميماته الزاهية حول البئر. فكّر في الظبي وهو يأتي ويذهب كما يشاء دائمًا عند غروب الشمس، وفي مثل هذا الوقت.. كان يأكل التمر والفستق من يده المفتوحة مثل الصحن، وفكر في الضوضاء التي كانت تحيط به، وبرائحةِ فمه ولسانه المليء بالشعيرات، الذي تفوح منه رائحة الماء العذب في الوادي. كان الظبي يمتلك أفضل أنفٍ على وجه الأرض بعد أنف أمه. في ذلك اليوم.. اقترب منه ولم يكن يعلم أنه لن يراه مرةً أخرى، كان فراؤه يلمع تحت ضوء الشمس وقت الغروب، وفاحت منه رائحةٌ كرائحة السجاد؛ الرائحة نفسها للسجاد الذي استلقى عليه «فريد» مع الجد «موسى» عندما نصبوا الخيمة في

الصحراء.

لا يهتم بترك الماضي؛ فهو طفلٌ وأصغر من أن يكون لديه إحساس حقيقيّ بالوقت. إنهم جميعًا معًا وفي الموقف نفسه، هذا كلُّ ما يعرفه ويتوقعه.

في البداية كان متحمسًا، ثم أصبح خائفًا ثم متعبًا، ولم يعد يشعر بشيء بعد الآن. تقيَّأ وأصبحت معدته فارغة، تتبعهم الشمس مثل حيوانٍ جائع، وقطرات العرق الساخنة تسيل على رؤوسهم.

البحر هادئ ولم يحدث أيّ جديد، والنظر إليه مخيفٌ مثل النظر إلى حيوانٍ مقطوع الرأس وملتوي الظهر. ظهرت بعض الكائنات زرقاء اللون وفمها مغمور بالمياه. بحث «فريد» عن ذلك الرأس الذي لا يظهر، فقط يطفو على السطح ثم يختفي.

تساءلَ ما هي حقيقة البحر.

أطلق أحد الفتيان الصوماليين النار على الأمواج؛ لاختبار أحد مشاعل الضوء، إنهم فاسدون مثل ذلك القارب ولا يمتلكون وظيفة. شرب الصبي كثيرًا مع أصدقائه حتى امتلأ بطنه وذهب عقله، والآن هم يتشاجرون.

الجميع خائفون ويرتعدون مثل الأوتار، تقيَّأ الجميع على لبّ الخشب الملقى بجانب عشب البحر.

أخبرت «جميلة» ابنها أنه يجب أن ينظر إلى الأفق حتى لا يشعر بدوار البحر.

نظر «فريد» في تلك اللحظة إلى السماء وقت غروب الشمس.

وفجأةً.. انبعث دخان وقود الديزل الأسود في وجهه، فأمسكته والدته بقوة، لقد كان يبحث عن هذا الأمان وذلك الحضن وتلك الرائحة، كانت تفوح من «جميلة» رائحة الديزل التي تعبر عن السفر والأمل.

شعر «فريد» بألمٍ في عينيه وساقيه. أصبح البحر هائجًا، ومال القارب من جهة واحدة. لم يكن بإمكانهم التحرك فهذا هو المكان المخصص لهم؛ المساحات الفارغة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بين الأشخاص، كانت هناك طفلةٌ صغيرة تبكي، ورجلان يصرخان بلهجةٍ لا يعرفها «فريد»، فشعر وكأنه يختنق، وأصبح فمه جافًا من شدة الحرارة، فأعطته والدته بعض قطرات الماء؛ رشفاتٍ صغيرة لا تكفِي حتى لتنظيف لسانه. كانوا يقضون حاجتهم في دلوٍ يتم تفريغه بعد ذلك في البحر، أكانوا مثل الحيوانات؟ ربما لا؛ فالحيوانات لا تخاف من الموت. إنّ البحر عالمٌ صغيرٌ في حدّ ذاته داخل الكون الكبير، بقوانينه وقوته واتساعه وارتفاع أمواجه، فالقارب وسط ذلك البحر كان أشبه بهيكلِ الخنفساء الميتة، الذي وجده «فريد» في الصحراء، والتي ماتت بسبب رياح الصحراء شديدة الحرارة. لا تغادر صورة الشمس مخيّلة «فريد» حتى عندما يغلق عينيه. فكّر في أوراق نبات القبار البري، تلك التي كانت تطحنها والدته وتضعها على جبهته لشفائه، وفكر في البائع المتجول الذي كان يقشر التين الشوكي بتلك الطريقة السحرية السريعة. وضعت «جميلة» بعضًا من السمسم في فمه لكن حلقه كان جافًا كالرمال.

بدا البحر وكأنه جبلٌ مرتفعٌ، و"فريد" خائفٌ من تلك الأمواج العالية التي تشبه الكُثبان الرمليّة، كان المحرك يعمل بصعوبةٍ وكأنه يكافح مثل الجمل الذي يحتضر. أصبح الجو باردًا في الليل، وانخفضت درجة الحرارة مع انخفاض درجة حرارة الماء، وتحوّل البحر إلى مجرّدِ سواد وكأنه يلفظ دخانًا، لكنّه ظلّ رطبًا. ارتجف «فريد» فلفته والدته في وشاحها المبلّل فانزلق مثل القشرة، شعر «فريد» بالبرد؛ فالرياح شديدةٌ قاسية. احتضن «فريد» والدته بحثًا عن دفء صدرها، لكنها هي أيضًا كانت ترتجف من الداخل. منذ فترةٍ طويلة لم تقربه من صدرها، فقالت له:

- أنت كبيرٌ بما يكفي الآن.

وفي الصباح ابتعد عنها؛ حيث شعر بالحرارة نتيجة احتضانها كالحرارة التي تتولد من الصخور إثر الاحتكاك. رغم كل هذا.. من الجيّدِ أن يكونا قريبين من بعضهما كالبحر والرياح، استلقى «فريد» وفكّر في البيوت الكبيرة المصنوعة من سعف النخيل التي اختبأ تحتها في أثناء هطول المطر.

في أحد الأيام، سمع «أغيب»، الرجل العجوز الذي يخيط الأحذية للسياح تحت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشعة الشمس، يقول: «إن كل ما حدث لنا هو بسبب النفط، ولولا وجود ذلك الذهب الأسود تحت رمال الصحراء، لما كانت هناك ديكتاتورية ولا قانون يدافع عن الأجانب بإطلاق صواريخ كروز. وأشار "أغيب" بإصبعه التي اخترقته الإبرة وقال: «النفط كاللعنة، فلا تثق فيما يبدو وكأنه ثروة؛ لأنه أسوأ من فخ القردة، وما هو ثروة للأغنياء يكون دائمًا بلاءً على الفقراء».

وثق «فريد» في الظبي، وذات مرةٍ.. وصل فمُ الظبي حتى الباب الأمامي ليأكل بقايا الطعام.

حل الليل واختفى القمر وأصبح كلُّ شيءٍ مظلمًا الآن. الصبيُّ الذي كان يضع الديزل في المحرك أشعل الولاعة البلاستيكية وكان يرتعش، وقال إن رطوبة البحر أطفأت اللهب. أصبحت أذرع «جميلة» أقلَّ قوةٍ وسقطت ولامست المياه، وكأنها تغرق مع القارب مثل عجلات العربات التي تسير في الصحراء.

انتظر «فريد» بزوغ الفجر وانتظر الوصول إلى إيطاليا؛ فهناك تمشي النساء من دون حجاب، والتليفزيون به قنوات لا نهايةَ لها. ذهبوا إلى الأماكن المضيئة والتقط لهم بعض الأشخاص بعض الصور وأعطوه الألعاب و«الكوكا كولا» والبيتزا.

قام «راشد» والد الجد «موسى» بهذه الرحلة في بداية القرن؛ عندما أحرق الإيطاليون القرى وطردوا البدو من الواحات ووضعوهم في حظائر صغيرة مثل الماعز. كان «راشد» صبيًا مرحًا، يعزف على الطبلة ويجمع الراتنج من أشجار المطّاط، وتُوفي إخوته في أثناء الترحيل، ثم نُقل وأُرسل إلى الحبس في «إيسولا تريميتي".

لا أحد يعلم عنه شيئًا، هل مات أم لا.

نظر «فريد» إلى البحر.

كان الجد «موسى» قد أخبره عن رحلة والده.

هبّت عاصفةٌ رمليّةٌ واجتاح الغبارُ الساحل، كما لو أنّ الصحراء تمرّدت على هذا النزوح الوحشي. صعد البدو إلى السفن بملابسهم القذرة ووجوههم النحيفة بسبب

الجوع، كانوا كالقطيع تحدق عيونهم بحسرةٍ في الفراغ.

بمجرّد أن وصل «موسى» إلى سن الرشد ذهب مع والده في سيارة «تويوتا» تخص بعض علماء الآثار المهتمين بالصحراء، وجد مجموعةً من الأولاد من "بولونيا" ينامون معًا في معسكرات الطوارق القديمة، ثم زاروا مقبرة «الجرَمنتيون"، أسلاف الطوارق، الذين استوطنوا جنوب غرب ليبيا، والبيوت البيضاء في مدينة «غدامس».

وفي خليج «سرت»، نظر «موسى» البحر الذي ابتلع والده. لقد فكّر في الصعود على متن السفينة ليذهب للبحث عنه في إيطاليا، على أمل أن يراه أمامه وهو طويل القامة وأنيقٌ كما كان، مرتديًا نظاراته و«الجلابية» البيضاء. كان يحلم باحتضان «الأب راشد» بين ذراعيه، وإعادته على ظهر الجمل إلى مكانه في الصحراء.

إنّ الحنين إلى الماضي جرح قلبه كما تجرح رمال الصحراء أسنانه.

لكن هذا البحر الأزرق الشاسع أخافه، وشعر وكأنّ يدًا تسحبه من رقبته.

وعاد إليه شعور الخوف من البحر كما كان في السابق.

لكن كان لديه الوقت لرؤية مجموعةٍ من السائحات نصف العاريات على الشاطئ، يأكلن التوتَ الأسود من داخل سلةٍ مصنوعةٍ من الخوص، ويشربن عصير الليمون.

أصبح يتذكر هذه القصة أكثر على مَرّ السنين. أصبحت النساء عاريات وأكثر جاذبية مثل الحور العين.

نظر «فريد» إلى البحر وفكر في الجنة، فقال له جده:

- إن النساء في الجنة أجمل، والطعام أفضل، والألوان ساطعة، لأن الله هو خالق الفجر.

فكر «فريد» في صورة والده «عمر»، تلك الصورة المعلّقة في غرفة الطعام، والتي رممها المصور بالفرشاة؛ شفتاه حمراوان، ورموشه مائلة، ونظراته عميقة.

إنه لا يشبه الأسطورة «عمر المختار»؛ ليس لديه أفكارٌ سياسيةٌ، وكذلك هو خجولٌ وضعيف.

نظر «فريد» إلى البحر.

سالت الدموع من عينيه ببطءٍ عبر شعر الوجه الصغير الأبيض.

CamScanner

ماهيـة الصمـت

سار «فيتو» على الصخور والشواطئ، غادر البلاد وخلفه صوت راديو لامرأةٍ تصرخ بلهجةٍ ما. الرياح والأمواج ترتفع عاليًا فوق الصخور، مثل الوحوش الغاضبة التي تنقض على الفريسة بمخالبها ثم تتراجع. أحبّ «فيتو» البحر العاصف، وعندما كان طفلًا، قفز إليه وترك الأمواج تصفعه، صرخت والدته «أنجلينا» على الشاطئ. كان يراها من بعيدٍ وهي غاضبة مثل «الساراكينوس"، ذلك المصطلح الذي استخدمه الرومان للإشارة إلى سكّان الصحراء، ثم أصبح يُطلق على العرب. كانت صغيرةً وفستانها يرفرف على ساقَيها، والبحرُ قويًا بسبب قوة الدفع، فدخل بين الأمواج السريعة وانزلق مثل الصابونة وابتلعه البحر وغرق في الدوّامة الهائجة، ثم وصل إلى القاع المُتسخ واصطدم بالرمال والحجارة الكبيرة حتى شعر بالدوار. غرق في الماء وتركته الموجةُ خلفها، وكان الأمرُ مخيفًا.

ولكن كل فرحة حقيقية تحمل الخوف بين طيّاتها. كانت هذه اللحظات أفضل

ذكرياته. الملابس مليئةٌ بالرمال، والعيون مصابةٌ وحمراء، والشعر أصبح كالأعشاب البحرية. أصبحت أجمل الذكريات كالملابس القديمة لا تعني شيئًا. كان يرتجف بسبب السعادة والخوف؛ الشفاهُ زرقاء، والأصابع لا تتحرك.

خرج بعد فترةٍ قصيرةٍ، فركض وألقى بنفسه في الرمال الساخنة. ارتجف مثل أسماك "البربوني" عند خروجها من المياه والعودة إليها مرةً أخرى. لم يكن يفكر في أيِّ شيء، كان يشعر أنه سمكةٌ أكثر من كونه إنسانًا، وإذا لم يعد.. فلا يهم، ما الذي كان ينتظره على الشاطئ؟ والدةٌ غاضبةٌ تدخِّن السجائر، طعامُ جدته؛ السبيط مع الصلصة، الواجبات المنزلية الصيفية، كلها أشياءُ سخيفة، لأنه لا يوجد أسوأ من الكتب والدفاتر في الصيف التي تؤجل دائمًا وكأنها ديونٌ أبديَّة.

وذات مرة عندما كانت تحاول «أنجلينا» إخراجه من الماء تعثرت في قنديل، وفقدت نظارتها الشمسية، فصفعته على وجهه وسحبته من شعره على الرمال، وضربته كما لو أنه أخطبوط. حينها كرهها ابنها بشدةٍ وشعر أنها تحبه أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. في تلك الليلة، جعلته ينام في سريرها فوق تلك الملايات البيضاء المجعَّدة التي تحمل رائحتها. كانت والدته قد انفصلت عن والده. استيقظت في الليل ووقفت أمام الباب تدخن تحت النخلة وذراعها فوق خصرها، وعلبة السجائر في يدها، وتحدَّثت مع نفسها بهمس. ربطت شعرها، وظهرت على وجهها تعبيراتٌ غريبةٌ بدت وكأنها قردٌ مستعدٌ للقفز.

كبر «فيتو» الآن. كانوا يعيشون خارج «كاتانيا" ويعودون إليها فقط في الصيف، وأحيانًا في عيد الفصح. انتهت الإجازة وعلى والدته العودة إلى المدرسة. أنهى «فيتو» المدرسة وانتهى وقت الغشِّ والأكاذيب، كان يوقظ والدته في السابعة برائحةِ فمه الكريهة. أنهى المدرسة الثانوية رغم أنه كان يرسبُ ويعيد العام من جديدٍ، لكنه نجح في النهاية، فقد كان ماهرًا أيضًا ومحبوبًا من قِبل إدارة المدرسة. كتب مقالًا عن طرابلس، وكيف طرد «القذافي» الإيطاليين من طرابلس في السبعينيات، بدءًا من الجنرال «جراتسياني"، الجزار الذي قاد قوات موسوليني في ليبيا، وحتى والدته.

تحدث عن الاشتياق والحنين إلى الأراضي الأفريقية، وعن الرحلة التي قطعوها معًا إلى ليبيا.

كان الأمر بالنسبة له تحرّرًا كاملًا، واليوم التالي كان بمثابة انقلاب. ذهب إلى حفلةٍ في ملهى ليليٍّ وقبّل فتاة، ولكنها أخبرته فيما بعد أن ما حدث خطأ. ومع ذلك، كان «فيتو» يعرف أن فمها يرتجف كالأطفال.

نظر «فيتو» إلى البحر وكان حافي القدمين، شعر كما لو أنّ لديه القدرة على الإمساك بشيءٍ ما بقوة بقدميه، القدم القابضة، كبحّار. دائمًا ما يشعر بهذا في نهاية الصيف.

إنه على استعدادٍ أن تظل أقدامه عاريةً على الصخور والحجارة.

كان صيفًا طويلًا حقًّا، خرج مبتلًا من البحر وكان في حالة ذهول. قرأ بعض الكتب في الكهف بينما كانت السرطانات تأتي وتذهب، ثم نام متأخرًا.

ارتدي قميصًا وسروالًا، وشعر بنسيم الرياح.

نظر «فيتو» إلى حطام القوارب التي حركتها الأمواج حتى وصلت إلى الشاطئ الذي كان أشبه بالمكبّ البحري.

على الجانب الآخر من البحر، اندلعت الحرب. لقد كان صيفًا مأساويًا، فالمأساةُ المعتادةُ كانت هذا العام أكثر.

ذهب «فيتو» إلى المدينة فرأى وسط المدينة ينفجر، ورائحة المكان أشبه بحديقة الحيوانات، وهؤلاء المساكين مصطفّين أمام المطبخ في الخيمة، وأمام الأبواب البلاستيكية للمراحيض، رأى الحقول ليلًا وكأنها مغزولةٌ بضوء القمر، ورأى جارتهم «تندارا" وهي تصرخ وكادت أن تموت من الخوف؛ لأن هناك شخصًا تونسيًا تسلّل إلى منزلها ليسرقها. كما رأى أيضًا الأولاد الذين عرفهم عندما كان طفلًا، والآن لا يلقي عليهم حتى التحية، ورأى أواني إعداد «الكُسْكسي»؛ الغذاء العربي للمساكين.

لم يقرر «فيتو» ماذا سيفعل في حياته، فهو يرغب في دراسة الفن، قام

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

بالتخطيط لهذه الفكرة هذا الصيف ولم يخبر أحدًا بها حتى الآن. فالرسم هو الشيء الوحيد الحقيقي السهل بالنسبة له؛ ربما لأنه الشيء الوحيد الذي لا يحتاج إلى استخدام المنطق، فقط عليه أن يطلق العنان لإحساسه، وربما لأنه قضى الكثير من الوقت في الرسم على دفاتر الملاحظات والمكاتب بدلًا من الدراسة.

رأى حطام القارب المخطَّط من الجانب باللونين الأزرق والأخضر، ومرسومٌ عليه نجم وقمر الأراضي العربية.

لم يأكل أيًا من الأسماك هذا الصيف، ولا حتى شريحةً من التونة أو سمك "الموبا"، فقط أكل البيض والمكرونة. لا يحب التفكير فيما تأكله الأسماك؛ حلم ذات ليلةٍ بقاع البحر المظلم، ومجموعةٍ من الأسماك العالقة في جمجمة إنسان كما لو أنها مجموعةٌ من زهور شقائق النعمان داخل كهف.

حتى العام الماضي، كان يصطاد الأسماك. وضع كيسًا مليئًا بأصداف بلح البحر وبقايا الطعام في الماء معلقًا على عوامة، وفي الفجر ذهب لإحضار الأخطبوطات التي التصقت بالكيس وحاولت اختراقه بأذرعها، وتقاتلت وامتصّت الكيس حتى مزّقته. ثم ظهر أخطبوط آخر عند حلول الليل، وأمسك بالسنّارة المعلّقة على المرفأ في قاع البحر، فقد أحب تمزيق الأسماك للطُعم في البحر كثيرًا.

هذا الصيف لم يفكر حقًّا في الغوص الحُر، لكنه ظلّ جالسًا على الأرجوحة الشّبكية، وفكّر في ضرورة الذهاب إلى المدينة.

رغم كل هذا الحزن والاضطراب، هناك جزءٌ من الجزيرة لا يصل إليه أحد. ما عليك سوى الابتعاد بضع خطوات وستكون خارج منطقة الاضطرابات تلك.

نظر «فيتو» إلى البحر، قالت له والدته ذات يوم: «عليك أن تجد مكانًا تنتمي إليه ويشبهك - على الأقلّ جزئيًا - في داخلك أو حولك».

والدته تشبه البحر، نظرتها صافية مثل مياهه وفي داخلها هدوءٌ وعاصفةٌ مثله.

لا تنزل أبدًا إلى البحر إلا عند غروب الشمس أحيانًا، عندما يتحوّل لون الشمس التي تضرب الصخور إلى اللون البرتقالي، وتتحول السماء إلى اللون الأحمر وكأنها

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

آخرُ شمس تظهر في العالم.

نظر «فيتو» إلى والدته «أنجلينا» وهي تمشي على الصخور وشعرها يتطاير والسيجارة في يدها غير مشتعلة. اختفت في أثناء المدّ كما يختفي السلطعون في المياه. لقد كانت لحظةً عابرةً، لكنه خاف ألّا يراها مرةً أخرى.

كانت والدته تشبه العرب منذ أحد عشر عامًا.

نظرت إلى البحر مثلما نظر إليه العرب؛ نظرةً حادةً كالشفرة التي تجرح الإنسان حدّ النزف.

وصلت الجدة «سانتا» إلى ليبيا في أثناء موجة الهجرة عام 1938، كانت السابعة من بين تسعة أطفال، وكان والدها وأعمامها يعملون بالخزف، غادروا «جنوة" في أثناء المطر الغزير، حيث كانت السماء مليئةً بالغيوم التي تغطي الشاطئ.

وصل الجد «أنطونيو» على متن السفينة الأخيرة التي أبحرت من «صقلية» ومعه أكياس البذور، وبراعم العنب، والفلفل الحار، كان نحيفًا داكن البشرة يرتدي قبعةً أكبر من رأسه. لم يعبر البحر قط، عاش في المناطق النائية اليابسة خلف جبل «إتنا". كان والداه من الفلاحين، ناما على الأكياس البلاستيكيّة. أنهك «أنطونيو» كما لو أنه فقد روحه ووصل شاحبًا كالجثة، ولكن بمجرّد أن شعر بهذا الهواء وشمّ رائحة القهوة والنعناع والحلويات، عادت إليه روحه. حتى الجمال في العرض العسكري لم تفُح منها رائحةٌ كريهة. سمع «فيتو» ألف مرةٍ حكايات جده «أنطونيو» عن وصول «إيتالو بالبو» إلى طرابلس على متن الطائرة البحرية، وعن العلم ذي الثلاثة ألوان الذي يرفرف على الشاطئ، وعن «موسوليني» الذي يمتطي جواده حاملًا "سيف الإسلام" إلى إيطاليا.

ثم منحوهم يومًا في طرابلس لزيارة المدينة، وأخذوهم إلى القرى الريفية، فوجدوا أنفسهم على بُعد كيلومتراتٍ من الصحراء التي تنبت فيها الشجيرات فقط، ثم شرعوا في العمل، وكان العديد من الإيطاليين يهودًا.

كوّنوا صداقاتٍ مع العرب، وتعلموا منهم طرق الزراعة، وعاشوا معهم كالفقراء

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

على الأراضي المتصدعة، وظهر التعبُ على وجوههم. تناولوا الفطير المخبوز على الأحجار، والزيتون المخلّل، وحفروا الآبار، وشيّدوا الأسوار لحماية الحقول المزروعة من رياح الصحراء.

كان «سانتا» و«أنطونيو» جيرانًا في المزرعة، ساعدا آباءهما في عملهما، ورأيا أشجارَ الحمضيات تنمو على الرمال، وتعلما اللغة العربية، وتبادلا أولَ قبلةٍ لهما في «بنغازي» خلال عرض الفروسية لفرسان البربر تكريمًا لـ«دوتشي"، اللقب الذي أطلق على زعيم الحزب الوطني الفاشي «بينيتو موسوليني».

اندلعت الحرب وأسقطت الطائرات المضادة الإيطالية «إيتالو بالبو» في «طبرق»، يُقال عن طريق الخطأ. وأضيئت ومضاتُ الأسلحة الإنجليزية في السماء احتفالًا بأنه تم طرد المستعمرين الإيطاليين.

صعدت عائلة «أنطونيو» على متن سفينة «كونتي روسو» التي أصيبت في طريق العودة إلى ليبيا بالطوربيدات البريطانية.

عندما انتهت الحرب، عاد الكثيرون على متن قوارب الإنقاذ، وقوارب الصيد البالية المليئة بالأشخاص، والسفن الخشبية المحمّلة بالأشخاص اليائسين الذين عبروا البحر من أجل العودة، والعثور على منازل، والعمل في الأراضي الزراعية، أو حتى من أجل الحب، مثل «أنطونيو» الذي كان يبلغ حينها سبعة عشر عامًا.

سافر سرًا وسط الشباك كريهة الرائحة، مثل السمكة الميتة في قارب الصيد الذي غادر «مارسالا" ووصل إلى طرابلس شاحبًا، ليكتشف أن عائلة «سانتا» انتقلت إلى هناك لأن والدها كان يعمل في نظام الصرف الصحيّ بالمدينة.

رحّب سكان طرابلس بالناجين من البحر كأخوةٍ تم العثور عليهم، لكنّهم كانوا يكرهون البريطانيين. أصبح الإيطاليون داكني البشرة؛ بسبب الشمس التي تعرضوا لها، وتحدثوا القليل من العربية، وشربوا الشاي بالنعناع وهم جالسون على السّجاد عند غروب الشمس، وتجمعوا في المكان نفسه مع الناجين الجياع مثلهم.

ثم في الخمسينيات جمعوا ثرواتهم وأطفالهم وافتتحوا مطاعم ومصانع صغيرة،

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

وشركات بناءٍ، وقاموا بزراعة أجزاءٍ كبيرةٍ من الصحراء.

كان «أنطونيو» قصيرًا ونحيفًا لدرجة بروز قفصه الصدري مثل طيور النورس، وكان يعاني من نقص التغذية، أما «سانتا» فكانت قويةً وطويلةً وداكنةَ البشرة، وعيناها خضراوان، ولديها شامةٌ على وجهها تتحرك مثل نملةٍ تحاول التسلق. تزوجا في الكاتدرائية، وكان «أنطونيو» يرتدي سترةً طويلةً مثل المعطف، وارتدت «سانتا» وشاحًا قصيرًا. ركضا تحت أعمدة الإنارة وأشجار النخيل على طول الكورنيش المجاور للقلعة الحمراء، في عربةٍ يجرها حماران، معلّقة حول رقبتهما الأجراس والمرايا الصغيرة التي تعكس ضوء غروب الشمس الرائع للمدينة.

قاموا بتوسيع ورشة صناعة الشموع القديمة، وأضاءوا الشموع في الأعياد المسيحية وجنازات الموتى في المساجد.

اعتاد النَّحال «جازيل" على فتح صندوق سيارة "فورد" قديمة مرةً واحدةً في الأسبوع، وأعطاهم بعض كتل الشمع المطاطية الخشنة ذات اللون الداكن من الخارج مثل التبغ، ولكنها ذهبية من الداخل مثل الراتنج. أذابت "سانتا" كتل الشمع تحت لهبٍ منخفضٍ تقريبًا. وفي أثناء الغليان، أزالت الشوائب باستخدام منخُلٍ، وكانت قطع خلايا النحل الدهنية تطفو على السطح؛ فقامت بتكريرها حتى تحوَّل الشمع من اللون الأصفر إلى لونٍ فاتحٍ باهتٍ وبلا رائحةٍ وبلا معنى، كالصمت. أعدَّ «أنطونيو» خلطات الألوان، وصبَّ الشمع في القوالب، وأضاف إليه عطر الهال وبعض الحمضيات، ووضع الفتائل ثم تركها تنغمس داخل بتلات الورد الناعمة أو الجمَّار، القمة النامية في النخلة، حتى تذوب في الشموع. ثم مرَّرها من خلال الثقوب الصغيرة في الشمع داخل قرص العسل، وفردها مثل العجين، ثم لفَّ شرائح الشمع بيديه العاريتين الناعمتين اللتين تتحملان الحرارة.

وبعد ذلك ذهبا للعيش في منطقة سكن العمال.

أنجبا طفلهما الأول «فيتو» الذي تُوفي بعد بضعة أشهرٍ ودُفن في مقبرة «هامانجي".

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

ظلت لوحات الشمع معلقةً في الورشة المظلمة، تنطفئ بالتدريج بسبب الحزن.

وفي عام 1959 كان النفط يتدفّق من جبل «زيلتن»؛ فتغيرت ليبيا التي كان يُطلق عليها آنذاك «صندوق الرمال»، والتي كانت تصدر فقط الخردة الناتجة عن الحرب العالمية الثانية، وبدأت حرب شركات النفط الدولية.

في هذه الأثناء، حملت «سانتا» مرةً أخرى، وكانت تصلي يوميًا في كنيسة «سان فرانشيسكو». وعند الفجر، كانت تأخذ أجمل شمعةٍ من جيب مئزرها وتشعلها تحت قدمي القديس.

وفي إيطاليا، كانت «أنجلينا» ستلد الطفل بعملية قيصرية، لكنها ولدت في طرابلس، في منزلها، بواسطة قابلةٍ يدها مصبوغةً بالحناء حتى مرفقيها، هي من قامت بعملية الولادة.

ذهبت "أنجلينا" إلى روضة «وايت سيسترز"، ثم إلى المدرسة الابتدائية في روما، وفي كل صباح، كانت تعبر جسر السكة الحديد، وتأكل البذور الطازجة في السوق، وشعرت برائحة الفلفل الحار تحرق أنفها. كانت تتسابق بدراجتها في الساحة الجليدية الصغيرة، وتسبح في شاطئ «سولفوريوس" (شاطئ الكبريت) وانتظرت مرور الملائكة الطائرة، ومشاهدة الألعاب الهوائية للدراجات النارية. كانت طرابلس بسيطةً كمدينتها، وكان صوت المؤذن يميز ساعات يومها، كانت تعرف أنها أجنبيّة إيطالية. ربما تغادر يومًا ما للذهاب إلى الجامعة لكنها ستعود، عاشت حياتها هناك بين «قوس ماركوس أوريليوس» وشجرة التوت تحت ذلك الضوء الذي لامس أرض الصحراء وأضواء الاحتفالات.

ثم كانت حرب الأيام الستة (النكسة، حرب 1967)، المذبحة المدبرة ضد الإسرائيليين، وكان هناك الكثير من الموتى والبيوت المحروقة، وقُتل الجزارون أمام معرض اللحوم الخاص بهم.

ثم جاء ذلك اليوم من شهر سبتمبر؛ يوم فرض حظر التجوال. وقعت المدينة في تلك الذريعة وساد الصمت في جميع الأنحاء.

اعتقد الجميع أن الملك «إدريس»، أول حاكم لليبيا بعد الاستقلال عن إيطاليا، قد مات.

لم يكن وقتها في المدينة، بل ذهب إلى تركيا من أجل العلاج. كتب الملك «السنوسي» القديم تعهدًا لدعم القضية العربية، وكان يحتفل مع الأجانب، وسمح للأمريكيين ببناء أكبر قاعدةٍ للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط، وعلى الرغم من ذلك، تم الاحتفال به واحترامه. كان نحيفًا وبلا حيلةٍ، يتكئ على عصاه الملتوية، ولديه لحيةٌ كلحيةِ الساحر الطويلة.

استمع «أنطونيو» إلى الراديو، في مصنع الشمع.

كان يعلم بانقلاب فتى الصحراء الصغير الذي كان وسيمًا كما الممثل، ومضحيًا كالشهيد.

له سحرٌ طاغٍ مثل «جمال عبد الناصر»، مثله الأعلى.

لا توجد دماء، فقط الأعلام الخضراء، قال الناس:

- إنها ثورة الشعب.

وعلى الرغم من قلة عددهم، فإن بدو مدينة «سرت» وقادتها الاثني عشر كانوا صغارًا جدًا.

إنه اليوم الأول من موسم الصيد، ذهب النحال «جازيل" لمطاردة الظّباء.

التقت «أنجلينا» "علي" في "سيارا ميزران" وكان متحمسًا. كان هناك احتفالٌ، وإحدى العربات الضخمة تتجوّل في الشوارع في وجود الألعاب الكبيرة. اختلطا بالحشد وركضا معًا إلى البحر وإلى الرصيف أمام القلعة. سبحا في البحر كما لو أنهما أخذا حمامًا طويلًا لا نهاية له، كان الماء صافيًا لدرجة أن القاع بدا وكأنه سجادةٌ تطفو على السطح مثل الأسماك الطائرة.

ظلّا في البحر حتى غروب الشمس، جسداهما متقاربان، وعندما خرجا من البحر، جفّت ملابسهما، تحدثا عن المستقبل، فدائمًا ما أراد «علي» التحدث عن المستقبل،

CamScanner الممسوحة ضوئيا ب

لم يكن أكبر منها كثيرًا، لكن بعد ظهر ذلك اليوم من شهر سبتمبر، بدا بالفعل كرجلٍ ناضجٍ.

بدأ بالتحدث عن الإسرائيليين، الإسرائيليين نفسهم الذين عاشوا أحرارًا في طرابلس حتى في ظل الفاشية، وانخرطوا في التجارة الاستعمارية، وشربوا الشاي المصفّى بواسطة أقمشة التل، ورقصوا في النوادي الخاصة على الرغم من القوانين العنصرية الصادرة في روما.

كانت «ريناتا" و"فياما" زميلتي "أنجلينا" في المدرسة، لم تستجيبا لدعوة حضور الاجتماع، جاء المدير وذهبت المعلمة إلى الردهة لتبكي.

نظرت «أنجلينا» إلى خريطة إيطاليا المعلقة على الحائط، وأشجار النخيل خارج النافذة، والمكتبين الفارغين، كانت في الحادية عشرة من عمرها واجتازت للتوّ الصف السادس. كان نهداها منتفخين، وترتدي صندلًا أبيض في قدميها وقد بدأت تضع العطر منذ شهرين.

لم تكن «أنجلينا» تعلم أنها لن تستطيع أن تنهي الفصل الدراسي؛ فسرعان ما أُغلقت المدرسةُ، وتكدّست المكاتب، ومُزّقت الحروف الأبجدية والصليب.

كان الممر والبحر الذي يظهر بعد حصن المدينة، ونافورة حورية البحر الصغيرة، والسوق المغطى، وسينما «غابي»، هو كل ما نظرت إليه. لو كانت تملك كاميرا الآن.. لقامت بالتقاط صورةٍ كسائحةٍ أمام منزلها، والتقاط صور لـ»أرانشيني" الأرز، كراث الأرز المغلّفة بفُتات الخبز المقلية، وهو مقدمٌ في الأطباق، وصور لرجالٍ كباز السن الذين لعبوا الدومينو تحت شجرة التوت، و»علي» وهو مبتلٌ في البحر واضعًا يديه على فخذيه، مرتديًا قناع الغطس وأنبوبة التنفس تحت الماء بين أسنانه شديدة البياض.

لم تكن «أنجلينا» تعلم أن «القذافي» الشاب طرَد الموتى أيضًا من مقبرة «هامانجي"، وأن إيطاليا استعادت رفات الآلاف والآلاف من الجنود الذين ماتوا في ليبيا.

كان والدها ووالدتها وأصدقاؤها من قرية «أوليفيتي" من "سيارا درنة" و"سيارا بوتشيني" في منطقة سكن العمال، والذين بنوا الطرق والمباني وآبار المياه وعمروا الصحراء بزراعة الفاكهة، فقد دفعوا ثمن جرائم الاستعمار الدموي لإيطاليا الليبرالية في عهد "جيوليتي"، وسيطرة إيطاليا على الشاطئ الليبي المسمى بـ«الشاطئ الرابع» عندما كانت ليبيا مستعمرةً إيطالية، في عهد الفاشية.

بدأ الشمع ينزلق على الأرض وغطّى أرضية المحل وأصبح كالكتل بلا رائحةٍ وبلا معنى، تمامًا كالصمت، اصطدمت مفصلات الباب ببعضها، كانت هناك قطةٌ على المرفأ، فمها متسخٌ بأحشاء السمك، تموء بصوتٍ أجش، نظر «سانتا» و«أنطونيو» إلى البحر وابنتهما الصغيرة بينهما.

كانت أشجار النخيل في «صقلية» تتأرجح وكلها تميل في جانبٍ واحد، وهبّت رياح الصحراء الساخنة المحملة بالغبار، ودخلت الرمال في الفم والشعر والأصابع. لن يعيشوا هناك بعد الآن، ستصبح الحياة سهلة. بزغ الفجر وأصبحت السماء برتقالية اللون، ما زالوا أحياءً وهذا ما يهم.

نظر «فيتو» إلى البحر الذي ارتفع وتراجع بهدوء، كان غاضبًا من تراجع مياه البحر البطيئة المضطربة التي تصطدم بقوةٍ بالصخور، الماء مضطربٌ بعد العاصفة الليلية، والقاع غير مرئيٍ. فكر "فيتو" في الملهى الليلي عند الفجر، والسجادة المتسخة، ورائحة الدخان، والعرق، والأرائك المتهالكة، وأعقاب السجائر الملقاة على الأرض مع الزجاج المكسور، وفكر في حفل عيد ميلاده الثامن عشر.

ثمل أصدقاؤه، وتناولوا الحبوب، ورقصوا، وكانوا غير متزنين، وتأرجحوا ذهابًا وإيابًا تقريبًا دون توقف، مثل مجموعة الأعشاب البحرية، ثم بدأوا في الهذيان.

لا أحد منهم يعرف ماذا سيفعل في حياته، باستثناء أولئك الذين يرثون أعمال آبائهم وسوف يدخلون في الأعمال التجارية.

لم يعرف «فيتو» أيضًا ماذا سيفعل في حياته، وحتى وقتٍ قريب لم يكن يفكر في الأمر حقًا، كان هادئًا. كان يفكر في الخروج، والحصول على المال للخروج،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وللوقود، والبيرة، والكباب، وخداع والدته، وإنهاء واجباته المدرسية عبر التليفون، وللقيام بنزهةٍ بالسيارة مع شخصٍ لديه رخصةٌ للذهاب إلى «كاتانيا" في أيام السبت، وأن يحظى بليلةٍ لتناول الطعام بالخارج، لرؤية نوافذ العرض في جميع أنحاء إيطاليا، ومشاهدة الأفلام والنساء السود في شارع «فيا دي بريما».

كان عامه الثامن عشر سيئًا. فجأةً.. بدأ يفكر في حياته.

في ذلك الملهى الليلي الذي بدا وكأنه مكبُّ الحياة وسنوات الشباب، كان المشهد حزينًا بالنسبة له، حيث لم يكن هناك رجالٌ، بل مراهقون فقط. كان يفكر في الجدة «سانتا» بملابسها الداكنة، وشعرها الأبيض، ويديها النظيفتين دائمًا اللتين تغسلان الخضار. لقد كانت فكرةً مجنونة، لم يتحدث أبدًا إلى أيِّ شخصٍ في المنزل، والآن تمنى فجأةً أن تكون جدته بجانبه وتشاركه هذا الصخب.

كانت هناك فتاةٌ تبكي في أحد الأركان. شربت كميةً كبيرةً من الكحول لدرجة أنها لم تستطع النهوض، ساقاها كبيرتان، وترتدي الكعب العالي، وتضع خطَّين من المكياج - الذي كان أكثر سوادًا من شعرها - على خديها كطريقَين سريعَين. ركض في تلك الممرات المظلمة، كم من مرةٍ تجاوز أصدقاءه في الليل على الطريق السريع. سحب مفاتيح المحرك وانطلق على الأسفلت بسرعةٍ فائقة، لدرجة أنك لا تستطيع رؤيته. كانت عيناه حمراوين مثل أشعة الليزر في الظلام.

اعتادوا على اللعب بأشعة الليزر الصينية السيئة التي تؤذي عيونهم، صرخوا وضحكوا وهم يدخنون.

كان من الممكن أن يصطدم مئات المرات وينتهي به الأمر بنشر الخبر في الصحيفة، انتشر خبر سيارة أخرى، وهي محطمة مثل علب التونة، في نشرة الأخبار المسائية وصور بطاقات هويتهم معروضة أدناه.

فكر في وجهه وهو بلا لحيةٍ في صورة بطاقة هويته، أصبح كما لو أنه في السادسة عشرة من عمره، كانت ملامحه كما هي، لا يزال يشبه الطفل.

كان عليه أن يلتقط صورةً جديدةً في كابينة التصوير، من أجل بطاقة هويةٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جديدة، فقد بلغ الآن سن الرشد ويمكنه مغادرة المنزل، كما أنه من الممكن أن يذهب إلى السجن.

لم يقترب أحدٌ من الفتاة في ذلك الملهى الليلي المظلم، حتى هو لم يفكر في ذلك على الإطلاق وتجاهل الأمر. كانت الفتاةُ حزينةً تشبه النافورة السوداء؛ لأنها لا تمتلك سببًا آخر للعيش سوى البكاء.

لم يشعر بالأسف حيالها، بل شعر بأنه يستطيع الإمساك بها وسحبها من كتفها وطردها، حينها كانت ستتوقف عن البكاء تحت شجرة نبات الدفلى دون أن تستطيع التعبير عن ذاتها، كانت واحدةً من أولئك الذين عادوا إلى المنزل بهذه الهيئة؛ قامت بتلطيخ الوسادة بالكحل الذي سال على خدودها حتى أصبح سوداء متسخة. اغتسلت ووضعت الفوطة الصحية، وذهبت وبدأت في التمايل مثل الأعشاب البحرية. كلما وجدوا مقعدًا فارغًا في الملهى الليلي، جلسوا وشرعوا في البكاء مرةً أخرى دون سبب ولم يتوقفوا أبدًا؛ هذه طريقتهم في التحدث أو عزل أنفسهم أو جذب الانتباه فلم يتغيروا كثيرًا، الطريقة نفسها دائمًا. أما الفتاة النحيلة الأخرى فسخرت منهم، هناك دخلت الملهى الليلي وبدأت بالضحك، ربما فقط لأن أسنانها البيضاء تصبح لامعةً تحت الضوء. رقص الجميع، لا أحد يبالي. هذه التصرفات تنتقل من شخصٍ إلى آخر في محاولةٍ منهم لعيش الحياة كما يجب، افعل ما يمكنك فعله بأفضل طريقةٍ للتخلص من مشاعر العنف كما لو لم تكن تمتلكها، تدرب على ذلك؛ ببساطةٍ.. ارقص مع الآخرين، تحت تلك الأضواء.

بعد ذلك، لم يتذكر كيف تبادل القبلات مع تلك المرأة البدينة التي تتصبب عرقًا أمام الجميع، لكنه شعر بالسعادة في تلك اللحظة الحميمية.

نظر «فيتو» إلى الأفق الغائم وغير الواضح، ونظر إلى الشاطئ الذي كان عبارةً عن مكب، بدا البحر الآن كغطاءٍ مطليٍّ بالفضة مثل عملةٍ معدنية.

كانت قصة عائلته تتمثل في عبور ذلك البحر ذهابًا وإيابًا.

أخبرته «أنجلينا» بقصة طردهم من البلاد، حين كانوا يدفعونهم بالبنادق في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ظهورهم، وعن تلك الحياة العربية الأليمة على شاطئ «سولفوريوس"، شاطئ الكبريت، وأشجار التوت في "سيارا درنة" ومدرسة روما، والأصدقاء المقربين.

جميع تلك الذكريات ذهبت بعيدًا في ذلك الصباح العاصف.

الحياة الأليمة كانت قصة والدته.

تعرف والدته ماذا تعني مواجهة البحر.

اقتربوا من الطيور المهاجرة، قالت «أنجلينا»:

- تعرف الطيور كيف تحمي بيضها، أمّا نحن.. فلا نعرف كيف نحمي أنفسنا، انهزمنا وتشتّتنا، وحملنا متاعنا في حقيبة سفرٍ وخرجنا ركضًا كالطيور التي تخرج من القشرة من أجل الهروب.

خلف صفّ الملابس المعلقة التي أضرم فيها أحدهم النار، والقمصان والملابس الداخلية المحترقة، كان هناك جنودٌ يرتدون قبعات حمراء بين أشجار الأوكالبتوس، صرخوا قائلين:

- الروم! الإيطاليون! وبصقوا على الأرض.

تذكرت «أنجلينا» الشخص الذي رمى برميل الشمع والشمع يغلي بداخله. كان داكن البشرة لكن عينيه زرقاوين، وشعره أشقر يبدو مصبوغًا تقريبًا، كان عنيفًا.

Telegram:@mbooks90

لم تكن تعرف شيئًا عن هذا العنف، بعض طرق العنف عرفتها لاحقًا، عندما علمت بعمليات الاغتصاب، ورأت صورًا للمقابر الجماعية في رمال الصحراء، وصفوفًا من البدو المشنوقين.

في السبعينيات، كانت «أنجلينا» تبلغ من العمر أحد عشر عامًا، أنهت الصف السادس.

شهدت الصراخ والطوابير أمام المكاتب الوزارية والقُنصليّة، وتفويض تأشيرة الاغتراب وشهادة البطلان. ركض الجميع بلا هدفٍ مستندين على الجدران مثل السحالي؛ لجمع الأخبار التي تتغير كلّ يوم. لا أحد يدخل حصن المدينة بعد الآن..

هبطت مصاريع المحلات، وهذان الرجلان القبيحان أحدهما ذو الشفاه الأرجوانية والمبللة الداكنة، في سيارة ألفا تتباطأ في المناطق الإيطالية تحت المنازل والمتاجر التي ستتم مصادرتها قريبًا.

تذكرت «أنجلينا» ليلة لقاح الكوليرا وهي ممسكة برداءِ والدتها، ووجهها شاحب مثل الشمعة، هذه هي ماهية الصمت حقًا.

لماذا أعطوها اللقاح الإجباري القادم من إيطاليا؟ ما هو الهدف؟ لقد فعلوا ذلك دون تغيير الحقنة، لكن لحسن الحظّ لم يكن لها عواقب.

عندما روت تلك القصة لابنها، كشفت ذراعها وجعلته يرى بالضبط المكان الذي دخلت منه الإبرة.

أخذ «فيتو» ملاحظاتٍ عن أطروحته في المدرسة الثانوية.

- لا يمكنني كتابة كلّ شيءٍ فيه، ولكن..

- لماذا تسألني الكثير من الأسئلة؟

في تلك الليلة، علمت «أنجلينا» بالحرب، فقدت كلّ حدود الثقة التي تملكها. هذا الشعور بالفراغ والسرقة عندما تخرج من مكانك وتنظر إلى المكان الذي لا يجب عليك النظر إليه، عندما تتراجع قليلًا إلى الوراء وتجد الهاوية خلفك، والعرب بالزيّ الرسميّ يتفقدون ما الأمر.

أمسكت «سانتا» يدها بقوةٍ وضغطت عليها. كان قلبها ينبض مثل الطبل، و"أنجلينا" تخاف من هذا الضجيج الذي لم تستطع إيقافه. كان الصوت صاخبًا للغاية، الجميع يمكنهم سماعه. تسارع صوت نبض قلبها، وأصبح كصوت المطرقة، الصوت نفسه كصوت تصادمِ الأدوات النحاسيّة في السوق. كانت النيران مشتعلةً طوال الليل، كل ما بدا لها طبيعيًا وصامتًا.. أصبح الآن كالكمين؛ صفوف التين الشوكي وقباب المآذن. فكّرت في مذبحة «شارع الشط» ضد الغزو الإيطالي، فقد درستها في المدرسة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان هؤلاء القناصة الإيطاليون مراهقين شرعوا في الغزو الاستعماري، وتقدموا ببطءٍ في المدينة الهادئة والنقية، فأصبح الوضع كمشهد الميلاد. استولوا على طرابلس دون عناء، فعلى ما يبدو أنّ العرب استسلموا وتراجعوا في الصحراء. الأتراك هم العدو، تلك النداءات الغامضة مثل تلك الطيور، ظلال أولئك الأشخاص الذين يرتدون العمامة ظهرت في الظلام كالعقارب، وهناك أيضًا الجبهة المفتوحة بلا حماية؛ فمن ناحية توجد الواحة التي تبدو كالمتاهة، ومن الناحية الأخرى رياح الصحراء. بحث بعض القناصة عن الأمان بالقرب من مقبرة «ريباب" الصغيرة، ثم ماتوا في القرن السابع عشر عن طريق قطع حناجرهم وتعذيبهم وصلبهم مثل الدمى، كان ذلك في ليلةٍ من ليالي أكتوبر عام 1911.

كانت أعمال الانتقام من القناصة الإيطاليين مرعبة، تم إخراج سكان «مينسيا" بعيدًا عن منازلهم المصنوعة من الطين، واحترقت قرى الواحة وتم تنفيذ الآلاف من أحكام الإعدام، ووُضع الناجون في الحبس الانفرادي في جزر «تريميتي" و«أوستيكا" و«بونزا".

الآن ازدادت الكراهية.

في أثناء ثورةٍ بدو «سرت»، وُجدت جثث الجنود الذين كانوا يرتدون الزيّ الموحد ممزقةً بسبب الألغام التي خلّفتها الحروب الاستعمارية.

أحرقوا الكتب الأوروبية والكتب التي تحتوي على ازدراء الأديان وكتب الإمبرياليين والفاسدين، في كل مكانٍ بالمدينة.

- الطليان قتلة! ليذهب الطليان بعيدًا!

مدّت «أنجلينا» ذراعها لتلقي اللقاح ولم تتفوه بكلمة، ثم سالت قطرة دم كبيرة.

تركوا المنازل والأسرّة ومتجر الشموع، وترك «أنطونيو» مفاتيح سيارة «فولكس فاجن بيتل" متصلةً بلوحة القيادة، أراد إلقاءها في الرمال لكنه تراجع بعد ذلك. فبتلك السيارة ذهبوا إلى مدينة «لبدة» الكبرى خلال الأعياد، وتوقفوا لأكل الشطائر أمام لوحة رأس "ميدوسا"، وذهبوا إلى السباحة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ساروا نحو المرفأ وانتظروا لساعاتٍ طويلة، تم تفتيشهم ومعاملتهم مثل المجرمين.

جرح أصدقاء «أنجلينا» العرب وجوههم من الألم كما كانوا يفعلون في الجنازات، ولعبَ الأطفال الحجلة على الأرضية الحجرية أمام ورشة الشمع، ولعبة «تماثيل إسكندرية».

- ما شاء الله، حفظكم الله.

نظر «فيتو» إلى البحر.

أخبرته «أنجلينا» عن الوسادة التي كانت تعانقها وهي على المرفأ؛ وسادةً من الساتان مطرزةً بخيوطٍ ذهبية، أعطاها لها صديقها «علي»، ذلك الطفل النحيف الذي يبدو أكبر من عمره، وشعره أملس لامع وأسودَ يميل إلى الأسود الداكن تقريبًا، ولديه فرقٌ في جانبٍ واحدٍ من شعره.

عندما ذهبوا للسباحة، خلع نظارته ولفها داخل قميصه. كانت «أنجلينا» تلوّح بيديها وتقول له:

- كم إصبعًا ترى؟

تقريبًا لم يرَ «علي» شيئًا من بعيد، وكان دائمًا يُخطئ الإجابة. غضب كثيرًا، فقد كان طفلًا حساسًا، لكنه تظاهر بأنه لم يحدث شيء. كان يغوص في البحر، سبح كالسمكة حتى وصل إلى القاع، ظلَّ في البحر لفترةٍ طويلةٍ حتى اعتقدت أنه ميّت، ثم بدأتُ أبحث عنه في الماء على أمل أن يعاود الظهور، فخرج «علي» فجأةً من البحر الهادئ. خرج وهو يدفع الماء ويضع أقدامه على الرمال ويقفز إلى الخارج مثل الدولفين.

وصل نجل النحال «جازيل" مع والده جالسين على المقعد الأسود الممزق في سيارة «فورد» الحمراء، بالإضافة إلى الشمع، قاموا أيضًا بتحميل أقفاص الدجاج وسلال العنب. كان «علي» يرتدي قبعة بيسبول مخططة، ونظاراته العريضة، ويمسك كتابًا في يده دائمًا.

ذات مرةٍ، أخذ «أنجلينا» لرؤية خلايا النحل، كانت هذه هي الرحلة الأولى التي قاموا بها معًا، حيث ركبت «أنجلينا» السيارة «الفورد». تجاوزوا الآثار الرومانية القديمة إلى قرية «البربر». أعطى «علي» «أنجلينا» غطاءً ومئزرًا طويلًا وشبكةً لتضعها على وجهها. أما هو فخلع ملابسه ونظاراته وظلَّ عاري الصدر، وترك النحل يغطيه بالكامل وذراعيه مفرودين، كان شكله مرعبًا، مثل فزاعات الحقول. سمع «علي» طنين النحل ولم يشعر بأيِّ إزعاجٍ أو لسعة. كان هناك الكثير من النحل الذي يغطي جسده كما لو أنه يرتدي معطفًا من الفرو يهتزُّ كلما هبت الرياح. كانت عينا «علي» ثابتتين تحدّقان في النحل، لقد بدا حقًّا مثل تلك الحيوانات التي تنتشر حولها الحشرات الصغيرة وكأنها تغزوها. بدأ يهلوس.. وكان خائفًا بشكلٍ لا يُصدق، أو ربما كان يريد التركيز. رفعت «أنجلينا» يدها مرةً أخرى وقالت:

- كم إصبعًا ترى؟

لم يستطع «علي» الكلام ولا الضحك، كان فمه مغلقًا كما لو أنه مخيط، واصلت «أنجلينا» خفض ورفع الأصابع وهي تقول له:

- والآن كم إصبعًا ترى؟

أزعجها أنه كان دائمًا متفوقًا عليها في كلِّ شيء، وكان يتمتع بالشجاعة، أجاب «علي» وقال:

- هناك ست أصابع.

ربما لم يخف من أن يجيبها، لكن نحلة دخلت إلى فمه ولسعته في حلقه. رأت «أنجلينا» عينيه السوداوين الحزينتين انتفختا وتحولتا إلى اللون الأحمر، بدا عليه الخوف. كان يطلب منها المساعدة في قرارة نفسه ولم يكن قادرًا على السعال ولا التحرك، فحلقه كان منتفخًا. بدأ يلهث ويشهق شهقاتٍ غريبة، وكان على وشك أن يفقد الوعي. بدأ النحل في الشعور بالتوتر وارتفع طنينه، فإذا لدغه النحل؛ سيموت «علي» على الفور، عندما رأته «أنجلينا» ينحني على ساقيه، تراجعت في خوف.

والده هو الذي أنقذه؛ أخرج خرطوم الريِّ وأطلق الماء على ابنه، فانطلق الماء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بشدةٍ وسقط النحل مثل الشعر المقصوص على الرمال كسحابةٍ رطبة، أخذه والده إلى المنزل، وجعله يجلس في مسحوقٍ من الأعشاب اليمنية ونترات الأمونيوم.

كان يعاني من الحمى الشديدة والهذيان، لكنه تعافى بعد مرور أسبوع.

كان يتردد على المدرسة ويكتب في دفاتر الملاحظات، وأيضًا على الطاولات. انتظرته «أنجلينا» خارج فصله لكن «علي» لم يتنازل وينظر إليها.

كانت «أنجلينا» حزينةً، لقد فكرت في المشهد ألف مرة، فهي التي استفزته بقيامها بتلك الوجوه المضحكة. كانت تغار من تلك الشجاعة والقدرة على الثبات، فلو كانت هي لم تكن لتصمد ثانيةً واحدة. في الليل شعرت بلدغةٍ في حلقها، كانت تعاني من السعال الذي جرح حلقها، وحينها فكرت في الخطر الذي تعرض له «علي». حلمت بأن «علي» سقط ومات على الرمال التي يغطيها النحل، بجسده النحيل المتورم بسبب النزيف الناتج عن اللّدَغات.

بعد ذلك، عاد «علي» إلى طبيعته، وفي ظهر أحد الأيام في أوائل الصيف، رأته في محل الآيس كريم الإيطالي «بولو نورد» وكان يلعق الآيس كريم وهو يقرأ كتابًا، فقالت له:

- ماذا تقرأ؟

كانت قصائد لـ«ابن حزم»، سبق وأن قرأ قصيدةً واحدةً له. "أتمنى أن ينقسم قلبي إلى نصفين بسكين، ثم أضعك بداخله، ثم يغلّق مرةً أخرى".

لمس سكين المحار الذي كان يحمله دائمًا في جيب سرواله. الآن «علي» في الثالثة عشرة من عمره، ظهر العرق على الشعر الخفيف فوق شفتيه ونظرت إليه «أنجلينا» وهي تحمرُّ خجلًا. كان «علي» مختلفًا، فهو لم يكن خجولًا أبدًا، أمّا الآن.. فيبدو أنه كذلك، ارتجف مثل الزهرة المتفتحة خلفهما. بدا كل ما حوله وكأنه يتحول للضوء البرتقالي الفاتح. اختفت معاناته الداخلية، كما لو كان العالم وراءهما يختفي ويتحول إلى مكانٍ آخر.

انتهت مرحلة الطفولة، وبدأت مرحلةٌ جديدة من الحميمية والخجل. في ذلك

الوقت، كانت «أنجلينا» تعرف القليل جدًا عن تلك المرحلة لتفسير هذه الحيرة والمأساة. أمطرت السماء، وذهب كلُّ منهم إلى منزله. توقفت «أنجلينا» تحت شجرة المطاط لتلتقط أنفاسها.

أحبت المطر في طرابلس لأنه كان غزيزًا ومفاجئًا مثل مشاعرها. تبللت «أنجلينا» تحت المطر. كانت ترتدي صندلًا أبيض، وساقها عارية، وشعرها مجعدًا والأطراف فاتحة. شعرت بشيءٍ داخل قلبها وكأنها يد «علي» تخترق قلبها العربي كما يحدث في الأشعار.

في يوم الرحيل، ركض «علي» نحو القوس الأبيض أمام منزل «أنجلينا»، انتظرها كثيرًا في الشمس. كانت «أنجلينا» ترتدي معطفها وشعرها مشدودًا كأنه لم يره من قبل. كان الأب والأم يرتديان ملابس ثقيلةً للغاية، لقد ارتديا أكبر قدرٍ ممكنٍ من الملابس، على ما يبدو أنهما متقاعدان، توقف الزمن وتغيرت الفصول، وتراكمت عليهم طبقات الملابس، لذلك اعتقد «علي» أنهما سيشعران بالحر في أثناء الرحلة.

لن ينقل كتل الشمع الخام مرةً أخرى إلى مصانع الشمع الإيطالية، ولن يتوقف والده أبدًا عن شرب البرتقال الصقلي مع «أنطونيو» ولعب الدومينو تحت ظلال أشجار التين. ولم يعد ينتظر قدوم «أنجلينا» وهي تقفز على الدرج بملامحها الحادة وعينيها الخضراوين القاسيتين. خرج من خلف الضوء الخافت مغطى برائحة الشمع والهيل.

رأى ساقًا تخرج من صدع الباب. نظر إليها فإذا هو صرصور، ولكن لم يسحقه بسبب الكسل. لم يذهب «علي» إلى مصنع الشمع، وظل متكئًا على سيارة «فورد» المغبرة، متظاهرًا بالقراءة.

لا أحد يريد أن يعطي شيئًا للآخر. بدأوا اللعب في وقتٍ متأخرٍ بالفعل وقد حان الآن وقت الذهاب. كانوا حمقى، تركوا بداخله حنينًا لا يمكن إخفاؤه، كصرخة ظلم. لعبوا معًا مثل أيّ شخصٍ آخر، وكأنهم شخصٌ واحدٌ يغني، أو ساقٌ واحدة تقفز، أو كسربٍ من الطيور تطير في اتجاهٍ واحد؛ لديهم الأفكار نفسها ويقومون بالحركات نفسها.

في يوم رحيل «أنجلينا»، دخل «علي» إلى مصنع الشمع. كان الباب نصف مغلق وكلُّ شيءٍ مهجورًا. بدا المصنع وكأنه كنيسةٌ مدنَّسة ولها رائحةٌ كرائحة بحيرةٍ جافة، الشمع الصلب ملصقٌ على الطاولة، وصناديق خشب الأرز ملقاةٌ بكميات كبيرةٍ على الأرض، والأوراق الشمعية المعلقة على الخيوط الطويلة ممزقةٌ مثل أعلام مملكةٍ مدمرة، مثل مملكة الملك «إدريس». كانت هناك قطةٌ تجلس على رماد النيران المطفأة، تمسح فراء بطنها وكفيها وذيلها مرفوع، وشرب قطٌّ آخر من الحوض الحجري.

خرجت الأسرةُ خاضعةً صامتةً من البناية المجاورة.

كان «سانتا» و«أنطونيو» قد ودَّعا وقبّلا ابن النحال.

انغلق الباب الأخضر لمصنع الشمع خلفهم دون قصد، بدوا وكأنهم ثلاثة أشخاصٍ مختلفين يرتدون ثلاثة أقنعةٍ باهتة، ولا يظهر أيُّ تعبيرٍ على وجوههم نظرًا إلى ما عاشه «علي» في ذلك اليوم. بدا الأمر كما لو أن شخصًا ما قتلهم في أثناء الليل ثم أعاد صنعهم بالشمع وألقاهم في قالب الشمع، ربما كانت ملامحهم كما هي، لكنهم لم يعودوا الأشخاص نفسهم، وكانت عيونهم أيضًا ثابتةً كعيون الموتى ومثل عيون الطيور المحنَّطة.

لم تعد مشاعرهم كما كانت..

كبرت «أنجلينا»، كانت تبدو أطول وأكثر رشاقةً في ذلك المعطف الصوفي الغامق المغلق حتى الحلق. كانت تمشي بصرامةٍ مثل الآلة المتحركة، كما لو أنَّ شخصًا ما قد أعطاها توجيهاتٍ دقيقة.

كانت تمامًا مثل من يتم ترحيلهم، أو من حكم عليهم بالإعدام بسبب جريمةٍ بشعة.

كما لو أنها مذنبة، مثل والديها.

أراد «علي" أن يبكي بشدة، كان يرتجف، ولم يَنم، بل كان ينتظرها في الشمس تحت شجرة المطاط التي حفروا جذعها معًا عدة مرات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ظلت «أنجلينا» ثابتةً بلا حراك.

كانت بالغة، ومدّت يدها في ثباتٍ وقالت:

- إلى اللقاء «علي»، حظًا سعيدًا.

والدتها هي التي دفعتهما إلى تقبيل بعضهما، كالحجارة.

تحلى «علي» بالشجاعة ووضع الهدية بين ذراعيها.

كانت وسادةً مستخدمة، ولكنها أنيقة إلى حدٍ ما، مصنوعة من الساتان الأحمر الغامق، مطرزة ومزينة بخيوطٍ ذهبية اللون. ووضع مع الوسادة بعضًا من «المرقاز"، تلك النقانق الحمراء التي أحبتها كثيرًا.

كانت النقانق غريبةً على تلك الوسادة المصنوعة من الساتان. لكنها كانت بمثابة الاعتراف بالحب أو ما شابه.

لم يستطع إخراج قلبه من صدره لإعطائها إياه، فقط أعطاها تلك النقانق الذي صنعها على شكل قلب. نظرت «أنجلينا» إليها في ثبات.

نظر إليها «علي» من تحت نظّارته بنظراته الحمقاء، أراد أن يخبرها بكلّ خططه. في غضون سنواتٍ قليلة، سيبلغ سن الرشد، وسيذهب إلى إيطاليا، وبإمكانه إنهاء دراسته هناك - مثل ابن عمه «محمد» - وكانا سيتزوجان، فتلك الوسادة كانت لوالده ووالدته؛ وسادة العروس والعريس، قال لها:

- إنها قيّمةٌ للغاية.

لكنها لا تبدو قيمة؛ فالساتان كان قديمًا ومهترئًا وتغير لون الخيوط قليلًا إلى الأسود.

أعطته «أنجلينا» أفضل صورةٍ لديها، لقد نجح مصور المدرسة في التقاطها من زاوية جانبية، حيث كانت تنظر من خلال زجاج نافذةٍ كبيرةٍ يحيط بها ضوءٌ أبيض جعلها مثيرةً للعواطف، نظر «علي» إلى الصورة بابتسامته الخفيفة. كيف ستكون تلك السنوات بالنسبة لصبيٍ قادرٍ على تحمُّل هجمات مئاتٍ من النحل؟

وضعت «أنجلينا» النقانق في جيبها والوسادة داخل معطفها.

بدت وكأنها طفلةٌ حامل وهي تخبئ تلك الوسادة.

احتفظت بها في أثناء الانتظار الطويل في الصف للتفتيش. تم إجبار صبيٍّ من ذوي الاحتياجات الخاصة على ترك كرسيه المتحرك، وكان يمشي على أطرافه المبتورة مثل إحدى السحالي الصحراوية التي اعتاد الطوارق على شويها.

بدأت «أنجلينا» تلعق حبل الوسادة التي أعطاها لها «علي» وتضغط عليها بين أسنانها. صرخ عليها أفرادُ الجيش لتفتح معطفها، مزّقوا وسادتها وأتلفوها بطلقاتِ الحربة. ما الذي ظنوا أنهم سيجدونه داخل تلك الوسادة المليئة بالعرق واللعاب التي امتصتها فتاةٌ خائفة، ربما الأموال والمجوهرات وأكياس المخدرات ومن يدري ماذا أيضًا.

كان البحر مليئًا بريش صغير رمادي اللون، طار إلى منصة القلعة ليصل إلى المكان حيث كانت تسبح هي و"علي". سمك الهامور الأبيض في قاع البحر مختبئ بين الرمال والطحالب البحرية. ودعته "أنجلينا" من السفينة بجانب المآذن وأشجار النخيل الكبيرة في "صقلية" والقلعة الحمراء.

تعرف «أنجلينا» كيف يبدو الأمر عند البدء من جديد، حين تنظر خلفك ولا تجد شيئًا بعد الآن. فقط البحر، حتى جذورك ابتلعها البحر من دون سببٍ مقبول.

تعلمت «أنجلينا» التعايش مع اللامعقولية البشرية، أما صورة ذلك الديكتاتور وهو يرتدي العمامة والنظارات الشمسية جعلته غريبًا. ما ذلك الوجه؟

شعره مثل العناكب.

لمدة 11 عامًا، كانت تُعتبر «أنجلينا» عربية.

كان ذلك قبل فترة المراهقة، كانت مرحلةً انتقاليةً سريعة.

هناك شيءٌ ما في المكان الذي ولدت فيه لا يعلمه الجميع، فقط أولئك الذين طردوا منه بالقوة يعرفون ذلك.

كان ذلك مثل الحبل المدفون في الرمال، يسحبك ويجعلك تكره خطواتك التالية.

لقد فقدت إحساسك بمعرفة الاتجاهات، حين فقدت ذلك النجم الساطع الذي اتبعته في المساء في تلك الليالي التي لم تكن مظلمةً تمامًا.

ولفترةٍ طويلة.. لم تعرف «أنجلينا» من هي، أطلق عليها شخص ما اسم «الليبية».

كانوا جميعًا من طرابلس وتم طردهم من ليبيا إلى المكان الذين أتوا منه.

بلا سبب، تم تفتيشهم في مخيمات اللاجئين في «كامبانيا» و«بوليا» وفي الشمال، حيث صفوف من الناس أمام المراحيض في يدهم ورق التواليت، النعال متسخة، المكرونة في صواني بلاستيكية، والتليفزيون على كرسي قابلٍ للطي. موقع التخييم، حيث تتوقف الحياة، كان كمعسكرٍ للمسافرين.

بالنسبة لكبار السن، كان من المستحيل أن يفكروا في بدء حياة جديدة.

كانت «أنجلينا» ورفاقها محظوظين؛ لأنهم استقروا في إحدى غرف نزل يطل على شاطئ البحر.

الجدران خضراء في قاعة الطعام في الطابق السفلي، والشطائر في الأكياس، ومربى البرتقال الهلامية على شكل مكعبات. أعاد والدها منديل المائدة إلى دائرته البلاستيكية كما كان. النزلاء لا يدفعون؛ ويصرخ الحارس ليدفعوا بسرعة، ذهبت هي وأمها إلى الحمام المشترك ليلًا مثل شبحين.

أين يقع ذلك النزل؟ في منتجعٍ فقيرٍ والغرف شبه منفصلة؛ كان المكان أشبه بوكر المافيا.

"سانتا" تكوي ملابسهم بمكواة سفر على السرير، و"أنطونيو" مستندًا على سورٍ خرسانيٍ يطل على مرآب السيارات التي تصنعها شركة «تورانتي". بدت ذراعاه الرفيعتان خارج القميص قصير الأكمام مثل الأجنحة المكسورة.

كان هناك صفٌّ من أشجار الليمون، الذي يعتبر مصدرًا للفيتامينات، على حافة النافذة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تذكرت «أنجلينا» الملعب في الطريق الخالي من الأشجار، والأرجوحة المعدنية التي لا ترتفع عاليًا، والأرجوحة ذات المقعدين. انحنت «أنجلينا» وخفضت ساقيها مثل الضفدع، لكنها تحتاج طفلًا آخر على الجانب الآخر من الأرجوحة.

دخل الرمل في عينيها وشعرها.

لكن أين يوجد مقهى «جامبرينوس" وسينما طرابلس المفتوحة، وأين هي الحفلات في «سيركولو" إيطاليا؟

أين كل أصدقائهم؟

لا يلقي عليهم أحد التحية، فهم لا يعرفون شخصًا واحدًا حتى.

فاحت منهم رائحة المطاط المحترق، دخلوا الغرف وذهبوا إلى الفراش بهذه الرائحة. انتهت الشموع المعطرة؛ فذهبوا إلى «ستاندا" لشراء الشموع الصناعية برائحة الليمون. قالت "سانتا":

- لا يوجد هناك شمعٌ حقيقي، بل مجرّد قمامة.

وقال الأب:

- إنها ذات رائحةٍ مؤقتة.

وأخيرًا، منحتهم الدولة مسكنًا في «صقلية»، وكأنهم ولدوا من جديد.

الحواجز سوداء، والنوافذ تطل على جدار منطقة الميناء الطرفية. لم يتكيّف والداها أبدًا؛ كانا يأكلان السردين المعلب في أثناء مشاهدة التليفزيون، ولم يعتادا على أيّ شيء ولم يتعرف عليهما أحد.

كانا صامتين مثل التماثيل الرمليّة.

خرج الأب للبحث عن عمل، تتذكر «أنجلينا» إيماءة والدتها وهي تقف خلفه وتضع يديها على كتفه لتنظفه، يستدير «أنطونيو» ويقول:

- ماذا؟ هل ملابسي غير نظيفة؟

توصله «سانتا» إلى الباب قائلة:

- استمر إلى الأمام، وانظر إلى المصعد في تلك السلالم المظلمة، تنفس جيدًا، واستنشق الروائح الأخرى في تلك الحفرة، ورائحة الصلصات التي تفوح من تلك السراديب.

أصبحت مثل الفأر الذي ينتظر الوقت المناسب للخروج.

لا توجد صورٌ للحياة البشرية في تلك الحياة الجديدة، فقط مجرد صراخٍ وأصواتٍ مزعجة لا داعي لها.

في طرابلس، كان هناك الكثير من المتسولين البربر كبار السن يرتدون «الجلابيات» المتسخة ذات الأزرار الممزقة. لكن كان هناك أيضًا العديد من الزنوج المعاقين ومبتوري الأطراف الذين هربوا من بعض المذابح. لم تسمح لهم «سانتا» بالدخول إلى مصنع الشمع لكنها كانت تعطيهم دائمًا الملابس القديمة والشمع في أثناء الليل.

الآن أصبحت «أنجلينا» ووالداها هم الفقراء، الجميع لديهم العيون البائسة الفاقدة للأمل نفسها.

بحثوا فقط عن معنى لوجودهم حين نظروا إلى الأشخاص الآخرين الذين يمرون على طول الطريق.

كان ذلك في السبعينيات حين وجدوا عالمًا مشتتًا، ولا أحدًا اهتم بشتاتهم، فقد كانوا الجزء السيئ لتاريخٍ استعماريٍّ لم يرغب أحدٌ في الكشف عنه.

كان السجن الحقيقي يتمثل في الشعور بالوحدة.

امتلك «أنطونيو» حقيبةً بلاستيكيةً سوداء مليئةً بالوثائق التي تهالكت بسبب تعرّق يديه وهو يتحدث. وعرض الورقة التي تشرح حالة عودته إلى الوطن.

كانت وجوه الأشخاص خلف النوافذ بائسةً وخائفة.

- لماذا جئت إلى هنا؟ هل لسرقة وظائف الإيطاليين الآخرين الحقيقيين الذين ولدوا وترعرعوا هنا؟ أم لتصبح ضمن تصنيفات البطالة؟

رغم كلّ شيء، ذهبوا للبحث عن الوظائف، ولم يكن يهم إذا كانوا من أبناء الفلاحين المرحلين إلى ليبيا عن طريق الحملات المليئة بالأشخاص الجياع.

تراجع «القذافي»، كانت إيطاليا مذنبة، والمجموعة الصغيرة من المشردين يمثلون هذا الذنب.

في البداية، كانت هناك لجنةٌ معنية بذلك بالأمر، حيث شعروا وكأن الإيطاليين الآخرين طردوا، لكن بعد ذلك لم يبحثوا عن أيّ شخص، وانهار كلُّ شيء.

لقد تركوهم وحيدين مثل القردة المجروحة التي تداوي جراحها في صمت.

توقفت «سانتا» عن المقاومة، وفي مكانٍ ما بداخلها بدأت تشعر بالذنب، على ما يبدو أنها لم تستطع التخلص من هذا الشعور بالخسارة والعزلة. إن الأشخاص المشرّدين فقدوا أنفسهم على الحدود، حتى أنهم يمكن أن يعترفوا بجريمة قتل لم يرتكبوها. من المؤكد أن البدو في معسكرات الاعتقال لم يُقتلوا، لقد عملوا فقط، وجعلوا ليبيا جيدةً، وحفروا الآبار والمجاري، سكبوا وصقلوا أميالًا من الشمع باركها الأساقفة والأئمة.

كان «أنطونيو» قزمًا، ملابسه وهي معلقة تبدو كالمجسمات الخشبية الصغيرة. بدت «سانتا» الآن أضعف منه، واهتمت بشؤونها في صمت، كانت تفكر في الطفل الرضيع الميت، الذي تُرك وحيدًا في المقبرة المسيحية بطرابلس؛ لم يكن لديهم الوقت لأخذه، ولم يكن لديهم المال لرشوة أيّ شخص لمساعدتهم. ظلت تهز رأسها مثل طائر نقار الخشب وقد فقدت عشرين كيلوجرامًا من وزنها.

تذكرت «أنجلينا» رؤية ثدي والدتها وهي تغسل إبطيها في الحوض الصغير بجوار الغسالة، الآن تحوّل هذان الثديان الضخمان إلى ثديين صغيرين.

انتظروا، حتى يتم تعويض المرحلين عمّا لحق بهم.

لم يكن هناك حديث إلا عن ذلك التعويض الذي من شأنه أن يعيد تأهيلهم.

بدأت تتردد تلك الأسئلة المتكررة: لماذا لم يقبل «مورو» دعوة «القذافي»؟ لماذا استهانت إيطاليا بالقضية كثيرًا؟ كانت هناك أزمة حكومية بالطبع، لكن ألم يفكروا بهم، الإيطاليون في ليبيا؟ كانوا يحملون اسمًا وهوية، وكان للموتى منهم مكانٌ في المقابر، مثل كل هؤلاء الأطفال الذين لقوا حتفهم بسبب وباء التهاب المعدة والأمعاء.

هل هذا هو التعويض الذي تستحقه تلك الأمهات عن تلك التضحية؟

لم يكن الأمر يتعلق بالمال فقط، بل أرادوا استعادة هويتهم ومكانهم، وأرادوا تعويضًا للكرامة حتى يضمدوا جراحهم.

يستطيعون رفع رؤوسهم ويقولون إن بلادنا عوضتنا، نحن ضحايا التاريخ.

مرت سنواتٌ في هذا النضال العبثي، ذلك لأن الكلمات التي تتكرر كثيرًا تصبح بلا فائدة وكانت الأفكار السيئة تنتشر كالغاز.

كان هناك إرهابٌ ومذابح دموية، وخدمات سرية، حكاية نزوحهم تحطمت مثل طائرةٍ ورقيةٍ كسرتها الرياح القوية.

لقد كانوا بالفعل مجرد صورةٍ، أو حملة صغيرة، أو مظاهرة غير مجديةٍ في قاعة احتفالات كبيرة مليئة باللاجئين الذين اشتاقوا إلى الماضي وهم يأكلون «الكُسكسي» في «بريانزا" و»فينيتو".

لم تعد «سانتا» قادرة على تحريك ذراعيها جيدًا، وكانت تعاني من ألمٍ حادٍ في العظام.

ذهبت إلى الطبيب النفسي لتحضر شيئًا يساعدها على التنفس في الليل عندما تستلقي، فكانت تشعر وكأن يدًا تضغط على صدرها وتخنقها، حين تتذكر تلك النعوش التي أعادها المقاتلون الإيطاليون وطفلها الصغير الذي ظلَّ هناك في ذلك المكان الموحش.

لم تستطع دفن بقايا رفات الطفل حديث الولادة في المقبرة، حيث تم تدنيس

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

القبور المتبقية - التشويه الديني - لسرقة بعض المقتنيات.

كانت تحلم بقطعٍ من خلايا النحل المجوفة تطفو فوق الشمع.

عيون «أنطونيو» كانت مغطاة بالمرهم.

وجد وظيفة تغليفٍ في شركة أثاثٍ مكتبي، ثم انتقل إلى الإدارة. لقد كان مخلصًا تمامًا في عمله، وقام بالحسابات حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل، حتى اليوم التالي، كان مهووسًا بعمله.

عندما تتعرض للظلم، إما أن تصاب بالجنون وإما تختبئ.

تذكرت «أنجليتا» الملابس الخاصة بالكنيسة والجمعية الخيرية المسيحية، ورائحة ملابس الأطفال الآخرين في الخزانات الأخرى. في البداية أحبت تلك الصناديق التي أحضرتها والدتها إلى المنزل، والتنانير والمعاطف التي تصنعها الفتيات الأخريات.

وتذكَّرت رائحةَ الصوف التي تخللت إلى حياة الآخرين، تمامًا كحياتها.

ورائحة العفن والنفتالين وبقايا الطعام.

سرعان ما سئمت من ذلك الوضع، المصارف الصناعية أمام المباني كانت مثل مدٍّ وجزر البحر الأسود. كانت تفضل رائحة أقمشة السوق، لطالما كانت رائحتها مثل البلاستيك.

كانت معتادةً على الحرية والجو الحار الذي لا ينتهي، وعلى رؤية أشجار النخيل في المنتزه التي تعود إلى قرون، والأحواض الحجرية الكبيرة، ورائحة السوق المنعشة، والفول السوداني المحمص، والفطائر، ورائحة القهوة التي تفوح في السوق بأكمله.

قفزت وهي متحمسة، ولكنها كانت تعاني من العرج. حاولت والدتها أن تجعلها تبدو مثل الفتيات الإيطاليات المولودات في إيطاليا. نظرت «أنجلينا» حولها، فهي أيضًا أرادت أن تبدو كشيءٍ أو شخصٍ ما.

بحثت عن نقطةٍ ثابتةٍ في السماء، ربما تجد نجمًا عربيًا تتبعه.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

لم تعد أشجار النخيل والطيور الملونة موجودة عند النظر خارج نوافذ الفصول الدراسية، كان يوجد فقط حوائط الإسمنت ورافعات مشاريع الإسكان الاجتماعي.

في المدرسة، لم يقترب منها أحدٌ لأنها غريبة؛ فجميعهم يعرفون بعضهم بعضًا بالفعل، نظروا إلى ساقيها وهي لا ترتدي الجوارب، ارتدت «أنجلينا» الصنادل حتى عيد الميلاد ولم تُصب بالبرد قط..

لا أحد يعرف أيّ شيءٍ عن طرابلس، حتى الأساتذة نظروا إليها من بعيد وكأنها أجنبية.

أطلق عليها الرفاق لقب "الإفريقية" وقالوا لها: «رائحتكِ تشبه رائحة الجِمال».

كانت المدرسة في الضُواحي، ارتادها أشخاصٌ سيئون لا يعرفون كيف يتعاملون مع الآخرين إلا بشكلٍ سيئ، تمامًا مثل الفصائل المختلفة التي تعيش في السهول العشبية، فالأشخاص حولها كالضباع المخيفة التي تترقب فريستها. حاولت «أنجلينا» التكيُف، ولكن بالطبع تم استبعادها بطريقةٍ قبيحة.

قامت باختلاق القصص لتقليل غربتها والتكيف معهم، فاخترعت قصصًا عن الأسود، والأطفال المأجورين، والطوارق المؤذيين، وكيف كانت طرابلس مكانًا مخيفًا لكنها نجت عن طريق الحِيَل، حينها فقط حصلت على بعض الاحترام.

كانت اللغة هي سبب انقسامهم؛ فلم تكن تعرف اللهجة الصقلية. كانت تعرف فقط الإيطالية التي تعلمتها في المدرسة الإيطالية في طرابلس.

عادت إلى المنزل وحدها، كان الطريق طويلًا حقًا بين تلك الحوائط الإسمنتية ورائحة البحر البائس، دون الرائحة الطيبة لنبات البَرْوَق أو شجرة الخروب، وكأن المكان بلا روح.

كانت تفكر في «علي»، وفي حبه، وفي سكين المحار الذي كان يحمله في جيبه، وأنه كان سيلحق بها في يومٍ من الأيام، ويتزوجها ويعودان إلى طرابلس. كان يمكنها أن تحقق ذلك بالزواج من عربي، كان «علي» في إمكانه أن يصبح ثريًا، فهو ذكيٌ

وشجاع، جمع مبلغًا لا بأس به من الدنانير عندما كان في الثالثة عشرة من عمره، سوف يشترون مصنع الشمع مرة أخرى. بدأت والدته في الغناء وهي تصنع تلك المكرونة الملونة، وكان والده يصنع الشموع في رمضان وعيد الميلاد.

كان هذا فقط ما تفكر فيه، أعادت حياتها إلى تلك الفترة، حيث توقفت.

كان الأمر كما لو أنها بين عالمين وزمنين مختلفين..

وفي المنتصف يوجد البحر.

وضعت التين أمام عينيها لتتذكر ذلك الطعم الحلو الهلامي، وقد رأت اللون الأحمر في تلك البذور، وكانت تبحث من خلاله عن عالمها الذي تركته.

في كل مرةٍ ذهبت فيها إلى الساحل، كانت تسبح في ذلك البحر.

ترعرعت في ذلك المكان، كانت تحمل كتبها وهي على شاطئ البحر الأسود ومناطق التعدين.

دخلت إلى البحر لساعات، سبحت حتى ساد الصمت حولها، حيث لا شيء ولا أحد يستطيع الوصول إليها. لقد تذكرت طريقة «علي» في السباحة، كان مثل طائر النورس الغارق.

نظرت إلى الشاطئ وإلى تلك المدينة الصناعية، لم تستطع رؤية غروب الشمس وكأنها نهاية العالم، وكأن الجميع مات، فلا يوجد أحدٌ ولا أصوات، فقط مجرد دخان المداخن.

غاصت إلى القاع وعبرت بلا خوفٍ بين الأعشاب البحرية، كما لو أنها مدفونة وسطها كالميت المدفون بين الرمال. تخيلت أنها تمتلك زعانف زرقاء طويلةً مع ذيلٍ برتقالي، كانت تخطط للسباحة إلى طرابلس. تمنت أن تخرج نصف سمكةٍ ونصف امرأة، كما في الحكايات الخيالية لحوريات البحر، وتبقى في المدينة حيث أشجار الخروب لتغني أغنيتها السرية. نظر «فيتو» إلى البحر وإلى أجمل جزيرةٍ تحيطها المياه الزرقاء كما في إفريقيا، والمدخل إلى الساحل المليء بالطحالب البحرية على

الجانبين، ككرسيٍّ بمساند خضراء يجلس عليه إلهٌ يحرس الأفق وينظم العالم كله.

فكر «فيتو» أحيانًا في الإله الذي ينظم العالم وتساءل عما إذا كان هذا العالم يحكمه أشخاص كثيرون، وماذا لو كان واحدٌ من هؤلاء الأشخاص صغيرًا، ولكن حازم؟

هذا ما تخيله الصبي، الكثير من الأشخاص يشاركون في تنظيم العالم. كان طالبًا لا يميل إلى التعليم، يهرب من المدرسة وأيِّ شكلٍ من أشكال التعليم.

أحنى رأسه خجلًا بسبب طموحاته المفاجئة، فهو لم يفعل أيَّ شيءٍ جيد، فهل من السهل أن تمر حياته على هذا النحو دون أن يلاحظه أحد؟ تظهر الشمس بأشعتها الحارقة في الأفق فوق تلك المستنقعات. شعر «فيتو» بمدى ثقل مصيره وهو يمشي في ذلك المستنقع بهدوء. يجب أن يفهم حقيقة مستقبله، ما الذي يفترض أن يفعله؟ فكر، ولكن كيف يعرف ما هو المصير الذي ينتظره؟ لم يجد الإجابة.

لماذا لا يلقِي بنفسه في البحر ويستمتع بالسباحة؟

لم يحب الماء هذا العام.

أخبرته والدته عن حمامات السباحة التي ذهبت إليها في فترة المراهقة. كان المكان الوحيد اللطيف الذي له جوٌّ ورائحة مميزان.

تقول إن البحر أنقذها، فكان يمكن أن تموت لأنها سبحت أكثر من مرةٍ في الظلام دون أن تخاف، ثم عادت إلى الشاطئ في البحر الأسود. كانت تتجمد بسبب انخفاض درجة حرارة جسدها، ولم تكف عشرات البطانيات لتدفئتها.

دون البحر، لم تكن لتعرف حقًّا إلى أين تذهب للتخلص من ذلك الفراغ.

نظر «فيتو» إلى البحر..

لم تعد والدته تذهب إلى هناك بعد الآن. أحيانًا تذهب إلى المياه ثم تتراجع وتضع المنشفة حول خصرها وهي ترتدي ملابس السباحة.

إنها السباحة هي الشيء الوحيد الذي تفعله كامرأةٍ فاقدةٍ للأمل تنظر إلى السماء

وتقول:

- شعرت بأن السطح يتمدد وأنا في الأعلى وهو شعورٌ جيد.

ثم تكيفت مع العالم الجديد وذهبت إلى المدرسة الثانوية، ومارست الحب للمرة الأولى ونسيت أمر «علي» والطفولة العربية. كان ذلك في أواخر السبعينيات. كانت ترتدي الملابس الرثة، والبلوفرات الفضفاضة، والقباقيب السوداء، والحقائب الخوص المليئة بالكتب والإكسسوارات النسائية. في أثناء المظاهرات الطلابية، صرخت مثل المجنونة، وأخيرًا نفست عن غضبها وعبرت عن رأيها في قضية كانت محل اهتمام جيلٍ كاملٍ من الشباب.

لم تعد قادرةً على تحمل عزلة والديها وحبسهم داخل تلك الذكريات التي تفيض عن طرابلس. كان هناك عالمٌ مستمرٌ حاولت عبوره؛ محاولة منها لجعله مكانًا أفضل، ساد الظلم الاجتماعي، وحالات الوفاة في العمل، ومذابح الأبرياء في جميع أنحاء العالم، لم تكن مجرد جروح.

ثم بُني هذا الجدار.

لم يعد بإمكانها تحمل ذلك المنزل الذي تنتشر فيه رائحة الحنين إلى الماضي. في النهاية سئم الأشخاص الذين لم يتوقفوا عن تقديم الشكاوى عن المسروقات، قطع والدها كل صحف المقالات عن ليبيا وعن مغامرتهم الفاسدة.

كان لديهم أقارب في «كاتانيا"، ذهبوا إليهم عدة مراتٍ في السنة. كونت «أنجلينا» صداقاتٍ مع أبناء عمومتها. ابتسم «سانتا» و«أنطونيو» وأكلا "الكاساتين"؛ حلوى الليمون الإيطالية، لكنهما كانا مثل المرحّلين الذين تظاهروا بالحديث عن شيءٍ آخر غير الترحيل وكأنهم غير مهتمين. وقفا بهدوءٍ بجانب بعضهما بعضًا، وهي تضع حقيبتها عند ساقيها، ووضع هو يده في جيبه فانزلقت منه عشر عملاتٍ معدنية، لم يستطيعا الانتظار للمغادرة.

أرادا العودة إلى تلك العزلة، حيث كانا أحرارًا في تقديم شكوتهما والندم إلى الأبد.

أسرعت «أنجلينا» لتغلق الباب.

في ذلك الوقت كانت تدرس، والآن أصبحت تعرف التاريخ الحقيقيّ للاستعمار الإيطالي. لقد تم ترحيلهم مع المستعمرات الرومانية، وتماثيل النسور، ولهيب تلك الإمبراطورية المنتهية.

كان «أنطونيو» محايدًا وصوت لجمهورية «لا مالفا".

في الماضي، لم تجد خلفها غير الرمال الناعمة، تلك المناظر الطبيعية النقية للكثبان الرمليّة والواحات.

كان هناك العديد من الطائرات التي هبطت في الصحراء، وبعد فترةٍ قصيرة، مات العديد من الأشخاص. كتب على شجرة عيد الميلاد «التالي!» وبدلًا من الكرات اللامعة والزينات المعلقة عليها، كان البدو مشنوقين.

نظر «فيتو» إلى البحر.

ذات مرةٍ، قالت له والدته: «وراء كل حضارة غربية هناك وباءٌ أو ذنبٌ جماعي».

الأم لا تحب من يدّعي أنه بريء.

إنها أحد هؤلاء الأشخاص الذين يريدون تولي مسؤولية أفعالهم، أما «فيتو» فيعتقد أنه شكلٌ من أشكال الغرور.

قالت «أنجلينا»:

- لست بريئة، وليس هناك مِن مستعمرٍ بريء.

وقالت أيضًا إنها لم تعد تريد السباحة في البحر حيث تغرق القوارب.

لا يوجد شيءٌ أسوأ من شخصٍ ثوريّ يستمر في وضع الأفكار العدوانية في رأسك.

لا يوجد شيءٌ أسوأ من أمٌ غير نمطية، لا تشبه أيّ أمٍ ولا ترتدي حذاءً مغلقًا وتحمل حقيبةً لا تحتوي على شيءٍ بداخلها سوى السجائر، ومفاتيح المنزل، وعشر يوروهات، وتليفون محمول لا تستخدمه أبدًا، حقيبة لا معنى لها مثل حياتها.

في يوم من الأيام سيبتعد عنها «فيتو». عاش الاثنان بمفردهما، كان المنزل يضيء بسببها فقط. فكانت تقرأ الكتب على الأريكة، مثل الطالب، فمنذ أن بلغت الخمسين من العمر، أصبحت أكثر كسلًا فقال لها:

- تماسكي ولا تنحنِي أكثر وتوقفي عن التدخين.

قالت معترضة وهي تهز كتفيها:

- "فالكون" و»بورسيلينو" دخنا أيضًا ولم يفت أيٌ منهما.

غالبًا ما تقول أشياءً سخيفةً من هذا القبيل، وتظل تتحدث إلى نفسها.

كانت تروي له معاصرتها للعالم، حياة مريرة، ولكنها ما زالت حية.

يومًا ما سيغادر ولا يبدو أنها خائفةٌ من ذلك اليوم. في الواقع، تودُ منه أن يذهب للدراسة في الخارج.

لم تعد تحب إيطاليا، ومع ذلك فهي تواصل تعليم اللغة الإيطالية للأطفال في المدارس المتوسطة، دون أن تملَّ يومًا.

جاء طلابها القدامى لرؤيتها، أمسكوا بها واحتضنوها، ثم أعدت لهم القهوة وتأملت كيف كبروا.

عندما عبروا الحدود للوصول إلى الجزيرة، كان «فيتو» طفلًا وأصيب بدوار البحر، وأصبح شاحب الوجه. وضعت «أنجلينا» يدها الباردة دائمًا على جبهته وقالت له:

- ابحث عن نقطة ثابتة واتبعها دائمًا.

شعر «فيتو» بعدم الراحة مرةً أخرى، حيث تؤلمه معدته وتنقلب مثل كيس من النايلون تحمله الأمواج. لا يزال بإمكانه الشعور بتلك اليد الرائعة التي تمسكه وتوجهه إلى النقطة الثابتة التي يجب عليه النظر إليها.

- ابحث عن نقطةٍ ثابتة في الأفق.

شيء سيساعده على التغلب على هذا الألم الذي يزداد الآن، وفي الصباح بمجرد

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

أن يفتح عينيه، أول شيءٍ سيقوله هو: «لماذا عليّ النهوض من السرير؟».

نظر «فيتو» إلى البحر، كان مثل الشبكة التي تُلقى في البحر وتُخرج أشياء. فكّر في والدته التي كانت تعاني من سرطان الثدي، وأنها خضعت لعمليةٍ جراحيةٍ وعادت إلى المنزل دون عواقب. لم يتغير أبدًا، فلم يكن «فيتو» لطيفًا، لقد كان وقحًا. قام بتمزيق علبة سجائرها، فعضّت «أنجلينا» يده.

من يدري كيف تفكر في نفسها.

ثم انتهت مغامرة البحر بالنسبة لـ«أنجلينا»..

تزوجت رجلًا من شعوب «النورمان»، أشقر ولديه نمش، خبيرٌ في القانون المدني، دافع عن بائعات الهوى والقاصرات في مقاطعة «سان بيريلو" المتدهورة. حصلت «أنجلينا» على وظيفة كمعلمة بديلة، ولد «فيتو» وانفصلت عن زوجها، ولكن زوجها السابق كان يساعد الأثرياء في «كاتانيا" للحصول على طلاقٍ جيد.

وفجأةً ذات يوم، انتهى الحظر، لو رغبوا في ذلك، لكان بإمكانهم العودة إلى طرابلس بالحصول على تأشيرةٍ بسهولةٍ مثل أيّ سائح.

في 7 أكتوبر، يوم الثأر الذي احتفل فيه الشعب بطرد القتلة الإيطاليين من نظام الجماهيرية العظمى للقائد، أعيد تسميته ليصبح يوم الصداقة. وأصبح «القذافي» صديقًا لـ«برلسكوني". ذهب للزيارة بصحبة "الأمازونيات" وهن يرتدين النعال المصنوعة من الساتان. شربن الشامبانيا تحت الخيمة البدوية. أما عن الإرهاب، فكان عبارة عن قذفٍ بالطائرات وليس الكلمات. كان أول حاكمٍ عربيّ يدين هجمات 11 سبتمبر، كالممثل بألف وجهٍ، بحث عن دور وسيطٍ جديدٍ في البحر الأبيض المتوسط. ضحكت «أنجلينا» وقالت:

- هل كان يريد الحصول على جائزة «نوبل» للسلام؟

همست الجدة «سانتا" في أثناء تنظيف القرنبيط بأن التاريخ كالدودة ذات الأربع وأربعين قدمًا، وكلُّ قدمٍ تشد من جزءٍ مختلف، وفي المنتصف يوجد جسدنا.

مات الجد «أنطونيو» دون أن يرى طرابلس مرةً أخرى، على الرغم من أنه كان يحلم بزيارتها وبالجدار الأبيض في مقهى «كورسو سيسيليا» حيث ذهب للعب البلياردو وطلب الشاي بالنعناع من السوبر ماركت.

- أمي، أريد الذهاب.

كان «فيتو» هو من أقنعها بذلك.

لقد سئم من ذلك التاريخ المحطم.

لذلك ذهبت «أنجلينا» ووالدتها و»فيتو»، الذين لم يسبق لهم الذهاب إلى هناك.

تصفحت «جوجل إيرث" ورأت طرابلس حين أشارت إليها بالفأرة.

لم تعتد «أنجلينا» على استخدام الكمبيوتر.

كانت حزينةً لعدة أيام، تحمل الهم، مُشتّتة، وتفكر كثيرًا.

كانت عصبية، وتضع الأشياء داخل حقيبتها، تحدثت فقط عن المناخ هناك، وعن مضاد البكتيريا المعوي الذي من الأفضل أن يجلبوه معهم في حالة تعرضهم لاضطراب معوي.

من يدري كم من الوقت انتظرَت تلك اللحظة، والآن بعد أن وصلت، بدت غير مهتمةٍ. كانت متسرعةً مثل شخصٍ كان عليه أن يخضع لعمليةٍ جراحيةٍ صغيرةٍ تم تأجيلها عدة مرات، ولكنها ضرورية، بالفعل كان لديها الهدوء نفسه عندما ذهبت إلى المستشفى لإزالة الورم في صدرها، وبقيت على النقالة مرتديةً ثيابها كاملةً دون أن تقرر تغييرها لتلبس رداء المرضى.

أولئك الذين قاتلوا بمفردهم مع أنفسهم ولا يغيرون ذلك، أصابهم التوحُّد.

في النهاية غادرت وهي مرتديةً صندلًا مثل من يذهب إلى الشاطئ ليومٍ واحد.

بدت الجدة «سانتا» كفتاةٍ صغيرةٍ في يوم الاحتفال بموكب «كانديلور سانت أغاثا»، مرتديةً فستانًا أبيض وحذاءً طبيًا جديدًا.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

استقلوا طائرةً إلى ليبيا، كانت الجدة تنظر في الأنحاء من النافذة المتسخة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي ينظرون فيها إلى ذلك البحر من السماء دون الشعور بالمرارة، والحزن، والألم، ودون خوف من الغرق.

كان من الغريب أن هذا الأمر كان كالمقصورة التي عبرت بحر حياتهم وهم بلا حراك.

أول ما رأوه من الأعلى كانت الحقول التي زرعها الإيطاليون في الصحراء حول طرابلس، وهندسة قطع الأراضي المرتبة بتصميمها السهل، كان هذا أفضل إرث، العديد من الأشخاص يعملون بأيديهم، وزرعوا الكثير من حقول أشجار الحمضيات والزيتون والصبار لحمايتهم من الكثبان الرملية.

لم يكن معهم أمتعة، ومع ذلك.. لا يبدو أنهم يريدون مغادرة المطار. أغلقوا على أنفسهم المرحاض، كانت الجدة تريد أن تقضي حاجتها، وغسلت الأم وجهها وخرجت بقميصها المبلل وشعرها ملتصقًا على صدغها.

لاحظ «فيتو» أنها كبرت. كانت هذه الفكرة تسبب له الألم، فهل ستصبح شابة مرة أخرى؟ لكنه في تلك اللحظة رأى ما أصبحت عليه.

كان نسيم البحر من المدن التي تطلُّ على الساحل العربي عليلًا، تلامسه الرياح التي تأتي وتذهب. رأوا الإنشاءات المختلفة للمآذن والقصور بين النخيل. كان «فيتو» سعيدًا بالعطلة. استقلوا سيارة أجرة، شعروا وكأنهم أثرياء، مروا على الطرق الأسفلتية متعددة المسارات، والصحراء حيث تسير سيارات «التويوتا» المتلألئة بغطرسةٍ وترجع إلى الخلف وتقطع الدوران في الاتجاه المعاكس، وكأن شيئًا لم يحدث.

توقفت سيارة الأجرة على شاطئ «باستيوني".

قامت الجدة «سانتا» بتمديد رقبتها وبدأت تشعر بالدوار، ممددةً مثل طائرٍ تعب من الطيران. ساعدتها ابنتها على الخروج من المقاعد المليئة بالعرق. كانتا مثل من نزل من مركبةٍ فضائية، كانت خطواتهم الأولى دون جاذبيةٍ كما لو أنهم لا يستطيعون

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

حتى أن يضعوا أقدامهم على الأرض.

أشعلت «أنجلينا» سيجارةً وارتدت نظارتها الداكنة، ألقت نظرةً جانبيةً سريعة، ثم بدأت في التقدم مثل متخصص إزالة الألغام في الصحراء.

حاولوا النظر في جميع الأماكن وإلى أبعد مكان، وركزوا بشدة على التغييرات التي طرأت حتى لا يتأذوا كثيرًا.

المدينة القديمة محاطة بمباني جديدة، الشوارع مليئة بالغبار، أما المعرض التجاري فهو على حاله. استنشقت رائحة طرابلس بفتحتي أنفها الواسعتين، وطاردت الوقت مثل شخص يطارد رائحة تسرب غاز، فبدا الأمر وكأن شيئًا ما على وشك الانفجار، واستدارت نحو البحر.

- الشاطئ.. أين الشاطئ؟

اختفي شاطئهم الذي كان يوجد بالقرب من القلعة، أصبحت الواجهة البحرية عبارة عن موقف سيارات ضخم.

فجأة انفجرت ضاحكة مثل امرأة مجنونة.

ثم مرَّ بجانبها قِط، مخلوق حذر ومنشغل البال مثلها. داعبت ساقه، فهو واحدٌ من تلك القطط الناعمة ربما يحتاج للحب، فلمسها وانقلب على ظهره. أذناه صغيرتان وفراؤه كستنائي، بدأ يفرك نفسه على الأسفلت وكفوفه الأربعة نحو السماء. انحنت «أنجلينا» لمداعبةِ بطنه الشاحب، بدأ القط في المواء فالتقطته وقبّلت أنفه، كانت رائحته كرائحةِ طفلٍ صغير، وعلى ما يبدو أنها لا تريد تركه. ابتسم «فيتو»، فقد أحبّ الحيوانات أيضًا، ولكن كان هناك شيءٌ غريبٌ في حماس والدته المفاجئ نحو ذلك القط الضّال، وكأنها عادت إلى طرابلس لتجد ذلك القط المريض المصاب، مع ذلك.. عندما حملته، بدا وكأنه قد شُفي، وضعت نظارتها الشمسية على شعرها، ونظرت إلى المدينة بعينين حقيقيتين ثم نظرت إلى «سانتا» وقالت:

- هل تتذكرين يا أمي كل تلك القطط التي رأيناها في أثناء مغادرتنا؟

سارت الجدة في جميع أنحاء «صقلية» دون أن تنطق بكلمةٍ واحدة، لكنها متعبة، لذا جلست على الرصيف تحت نخلةٍ ما. ظنَّ «فيتو» أنها جلست لأنها النهاية. أخذت نفسًا عميقًا قاسيًا، كنصلٍ يخترق الجسد ويصل إلى عضوٍ حيويّ.

كانت العديد من المباني التاريخية سليمة، ربما فقط كانت أصغر وأقذر مما كانت تتذكره، وأخرى تم محوها حقًا؛ حيث تم طلاؤها بطبقات الدهان الحديثة. اختفت المقبرة اليهودية القديمة وبُني فوقها ناطحاتُ سحابٍ شاهقة ذات شكلٍ متناسقٍ فوق ركائزَ خرسانية.

- دعونا نحصل على الآيس كريم وعصير الليمون.

كانت الأم قد أخذت بيد الجدة المنحنية الكبيرة في السن، وإذ هي الصورة نفسها قبل أربعين عامًا، حين أخذت الجدة بيد «أنجلينا» الصغيرة نحو الكاتدرائية، باتجاه محل الآيس كريم «بولو نورد».

كان الوضع فوضويًا في الشوارع بسبب السيارات والدراجات والباعة الجائلين، فقد تحركوا في مناطق ضيقةٍ، ولكنهم أصبحوا أكثر سعادةٍ كالكلاب البيضاء يبحثون عن أثر رائحة الدم. ثم ذهبوا بعيدًا عن ضوضاء المدينة والمباني الجديدة للبنوك وفنادق المؤتمرات. بحثوا عن مدينتهم التي فقدوها منذ فترةٍ طويلة، وذهبوا للتسوق في الأماكن الداخلية فوجدوا المتاجر بائسةً للغاية؛ تماثيل عرض الملابس قديمة قدم الملابس. ووجدوا في السوق بجانب الحقائب الجلدية ذات العلامة التجارية «لويس فويتون» المزيفة، تماثيل القائد في كلِّ ناصيةِ شارع.

ذهب «فيتو» إلى «نيويورك» مع والده في العام السابق، كانت رحلة بين الأولاد، هم الاثنان وابن والده الجديد، الذي على عكس «فيتو» كان سمينًا ويريد دائمًا أن يأكل ويشرب ويمتص شيئًا ما، لكنه عزف على الكمان بطريقةٍ رائعة، وناموا في غرفةٍ من ثلاثة سرائر على الجانب الآخر من نهر «هدسون». كانت واحدةً من تلك الإجازات القصيرة والمليئة بالإثارة دائمًا والتقاط الصور.

أراد «فيتو» الذهاب إلى أرض الصفر أو «جراوند زيرو»، تلك المنطقة في

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

«نيويورك» التي أنشئت بعد مشروع «مانهاتن» والحرب العالمية الثانية. كان هذا هو أكثر ما أثار اهتمامه. تذكر - مثل الجميع - أين كان بالضبط في ذلك اليوم من شهر سبتمبر، لقد كان بمفرده مع جدته، وكانت والدته في المدرسة. انفصل والداه للتوّ فظن أنها نهاية العالم، وانتظر تلك الطائرة التي ستهبط عند المبنى، أمام النافذة.

نظر لتلك المساحة السوداء الهائلة لموقع بناء «جراوند زيرو». كان هناك العديد من السياح ملتصقين بحواجز الأمان والمراقبة والمراسلة.

لم يبحث «فيتو» عن تليفونه المحمول ولم يقم بأيّ إيماءة، لقد تخيّل ذلك المركز في المدينة، لكن رؤيته كانت مختلفة.

إنها حقًا نهاية العالم، كان كلُّ شيءٍ نظيفًا جدًا حتى بعد مرور سنوات، كلُّ شيءٍ كان هناك أصبح داخل الفراغ الأسود الهائل.

شاهد «فيتو» الأخبار على التليفزيون، أشخاص يحاولون التعرف على جثةٍ تسقط من الطائرة، ورجلٌ يقف رأسًا على عقب.

كان أخيه غير الشقيق، وكان يعيش مع أمٍّ أخرى، ولديهم أموالٌ أكثر بكثيرٍ منهم.

شعر بالوحدة بشدة.

في مثل ذلك اليوم - 11 سبتمبر - الذي سقط فيه برجي مركز التجارة العالمي، كان انفصال والديه.

تمالك نفسه، ذهبوا إلى «سنترال بارك» في «نيويورك»، وتجولوا حول البحيرة. لم يستطع إبعاد تلك البحيرة الكبيرة المحترقة عن نظره، كانت على بعد عدة بنايات. لم يكن يريد أن يلعب دور البطل الخارق «جو ألين» مع أخيه في تلك الليلة، فغضب والده منه وغضب هو على أبيه.

مكث طوال الليل والكمبيوتر على ركبتيه أمام النافذة، يشاهد الأفق بين البرجين. ذات يوم، كان لديه عائلة، أما الآن ليس لديه سوى الشكوك والمال الذي كان والده يعطيه له بين الحين والآخر من أجل «الآيبود" والملابس. كان يتخيل أنه كسر

الزجاج وألقى بنفسه، لكن الزجاج مقاومٌ للكسر.

ظلَّ يراوده ذلك الشعور، وظلَّ يشمُّ تلك الرائحة السيئة المحترقة لـ«جراوند زيرو». شعر بذلك في طرابلس، لأنه فجأة، وأمام رائحة القهوة، والتوابل الحارة التي ربما تُذكِّره بالأعراق المتعددة في «نيويورك»، شعر بضيقٍ التنفس. كان يأخذ شهيقًا وزفيرًا، تمامًا مثل الدخان الذي يزفر ويختفي، ثم يتبدَّد.

طرابلس كانت في القاع بالنسبة لهم، وذاكرتهم تحطمت وذابت.

قال والده إن «أنجلينا» كانت كشخص ينتظر المغادرة، كان هذا الزواج أيضًا إقامةً إجبارية.

كان والده يرتدي الملابس التي أعدها له الخياط، كانت كسترات المحامي. إنه من الأشخاص الذين يهدؤون بالكلمات ويصبح الأمر وكأن شيئًا لم يكن. أما والدته عكس ذلك تمامًا، فهي قادرةٌ على أن تكون نفسها فقط، ولا ترتدي ملابس فاخرة، حتى أنها لا ترتدي حمالة صدر. فهم «فيتو» الآن ما سبب طلاق والديه، وشعر في بعض الأحيان أنه هو أيضًا بعيدٌ عن الطريق. «أنجلينا» قادرة على الصمت لعدة أيام، لا تعاتب، بل تفعل كلَّ شيءٍ بصمتٍ مثل «غاندي». كانت قد تركت بعض الملاحظات مثل: «لقد ولدت لأكون عزباء وأعيش وحيدة».

وفي واحدةٍ من تلك الملاحظات، كتبت: «حطم الجدار العاطفي».

هل كان ذلك إشارةً له أم لنفسها؟ قام «فيتو» بجمعها مثل الملاحظات الأخرى.

فهم «فيتو» في تلك الأيام في طرابلس الكثير عن والدته وعن مرضها، الذي كان يعتبر أهون الشرور، وكان عابرًا، كالنوبات التي تختفي بعد حمى الملاريا. رأى كذلك عينيها المصابتين، وحلقها الذي يؤلمها حتى أصبحت لا تستطيع الكلام، كما لو أن حيوانًا مختبئًا داخل حلقها عضها والآن أصبح ذلك الحيوان بالخارج جائعًا وشرهًا.

راقب «فيتو» والدته وهي تحرك رجليها وخصرها بطريقةٍ غريبة، كما لو كانت قد شعرت بإيقاع ذلك البحر هناك وتلك الموجات الطويلة المتتالية. الفتى الذي عزف على العود بجانب نافورة الغزال كان قد خلع نعليه وأمسكهما في يده ومشى يتباهى

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

بكعبيه.

بدت وكأنها قد أخذت جزءًا من المدينة، وحلت الأشياء السيئة محل الأشياء الجيدة التي اختفت، الآن هي تستمتع بهذا التشويه، مثلما شُفيت من السرطان.

كانت الجدة تسير مثل الموتى الأحياء وهي في حاجةٍ لأن تسترد عافيتها، وفجأة، لم تعد قادرةً على التحمل، فاحتضنتها «أنجلينا».

لقد ضاعوا في الذكريات، في البداية خافوا، ثم كادوا أن يصابوا بالجنون، أحيانًا يغضبون وأحيانًا أخرى يفرحون.

كان شعرها أشعث وعيناها تلمعان. بدا الخوف والجوع في ذلك الوقت كأنهما وجهان لعملةٍ واحدة، وصل قاربهم إلى البر من بين جميع قوارب الصيد التي غرقت بسبب العواصف، أحقًا كان البربر يبحثون في الأعماق عن الأشياء المسروقة التي لم تُسترد؟

أصبحت الجدة أكثر قوةٍ ولم تعد تعاني من آلام المفاصل والأصابع، أصبحت قويةً ومنتبهة. كانت قد علقت في الطابق السفلي تحت الأروقة العثمانية فتقول:

- كان هناك مطعم "أحمد وكونشيتا"، هل تتذكرين؟ تلك الفطائر الكريميّة والباذنجان.. اللحم المتبّل بين أوراق العنب، وقصور الفاشيين القديمة، والحلّاق، هل تتذكرين؟ لقد ركبتِ الخيلَ مع ابنتك.

أصبحت كنيسة «مادونا ديلا جواورديا" الآن صالةً للألعاب الرياضية، والكاتدرائية أصبحت مسجدًا، وقد تم ضمُّ ساحة «كاستيللو" وساحة "إيطاليا" لتصبحا ساحةً واحدةً رائعةً، وهي ساحة «فيردي ديل رايس».

عبروا جسر السكة الحديد باتجاه منطقة سكن العمال.

لم يستطيعوا التعرف على منطقتهم؛ فقد حلّت المباني الجديدة محلّ القديمة، وكان من الصعب حقًا التنقل. يجب أن يكون المنزل هناك، حيث يوجد الآن مبنى ذو هيكلٍ معدني، وأصبحت ورشة الشموع في مكانٍ ما تحت هذا المبنى، ثم فقدت

الجدة وعيها ووقعت على الحجارة مثل عرافٍ يستجوب الأرض.

فكر «فيتو» في «جراوند زيرو» مرةً أخرى، إلى متى سيظل هناك؟ في الحقيقة، إنه في يومٍ من الأيام لن يفكر أحدٌ في الأمر مرةً أخرى.

في وقتٍ لاحق، وصلوا إلى مقبرة «هامانجي" ووجدوا أكياس القمامة ملقاة تحت أشعة الشمس، والمقابر فارغة. دُفن الأجانب الجدد والصينيون والمصريون هناك، فتم إحياءُ المقبرة المسيحية القديمة. كانت المنطقة الإيطالية نوعًا ما تحت الإنشاء.. الجدران كاملة والمنافذ مدمرة، وكأنها رفوفٌ فارغة في مكتبة، مرُّوا بمقابر مهجورةٍ لجنود مجهولين، وضريح «إيتالو بالبو» المصنوع من الرخام، وكان فارغًا أيضًا.

وصلوا إلى منطقة الأطفال، فوجدوا كل الأطفال الذي ماتوا خلال وباء التهاب المعدة.

ذهبت الجدة «سانتا» بحثًا عن مولودها الذي توفي قبل خمسين عامًا. ارتدت نظارتها وصعدت السلم لقراءة الأسماء في الأعلى. دخلت إلى كل ثغرة، وفتشت بين الرفات كما لو أنها في السوق تختار الخضار والفاكهة عن طريق تحريك الصناديق والبحث تحتها، كما لو كان أمرًا طبيعيًا ومعتادًا، لكن كل ذلك كان غير واقعي، فتلك الحفر دفن فيها الفقراء، أما العائلات الغنية فتمكنت من إعادة أحبائها إلى أوطانهم، في حين هم لم يكن لديهم المال للمطالبة بأيّ شيء. مع سنّ الشيخوخة، لم تعد «سانتا» تتذكر جيدًا. في وقتٍ ما، أصلحت التذكارات الليبية، والآن تقول إنه من الجيد أن تترك رفات «فيتو» الصغير في طرابلس حيث ولد وعاش وقتًا قليلًا.

كان «فيتو» مضطربًا، تجشأ بشدةٍ وأصاب حلقه، تمنى وجود جدته معافية، ولكن بقدر ما كان يشعر بالقلق.. كان خائفًا حقًا من قراءة الاسم على القبر. ذهبت «أنجلينا» إلى الجانب الآخر، فذكرياتها لا تتوافق مع ذكريات والدتها، ثم توقفت وهي غاضبة.

صرخت قائلة:

- ماذا تفعلين؟ إنه ليس هناك!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بدأت تتجادل مع ابنتها ودار بينهما نقاش سخيفٌ في تلك المقبرة، صرختا كما تصرخان في السوق. ثم تذكرتا الأشياء القديمة، كان بعضها مضحكًا. كانوا مُنهَكين، لكن انتهى الأمر كالمعتاد. أمسكت «أنجلينا» والدتها من ذراعها وذهبت مع تلك الذكريات.

تم انتهاك المقبرة المسيحية عدة مرات، واستُخدمت الرفات البشرية لطقوس مُروِّعة. فتشوا حتى حلول الظلام، وفي مكانٍ ما، كانت هناك شجرة كبيرة وصلت جذورها إلى القبور، ربما كان الطفل قد تغذى على هذا النبات القديم. لقد كان هذا أفضل اعتقادٍ فكروا فيه.

ثم بكت الجدة وبدأت دموعها تسيل كالفيضان، ويبدو أنها لن تجفَّ مرةً أخرى. كان مشهدًا حزينًا بالنسبة لـ«فيتو»؛ لأنه اعتقد أن مشاهدة شخصٍ عجوزٍ يبكي هو ظلمٌ كبيرٌ وأكثر ظلمًا من أيِّ شيءٍ في العالم.

كانت قد أحضرت مجموعة من أزهار عباد الشمس التي جفَّت على طول الطريق، لم تعد تعرف ماذا تفعل بها الآن، ثم انحنت ووضعت ما تبقى في الزاوية، فكانت كالعيون الصفراء المريضة التي تم اقتلاعها من الدمى البالية.

قبل العودة إلى الفندق، تجوَّلوا في السوق وشاهدوا المضارب النحاسية والحناء الحمراء والتمر الأسود والأدوية. الآن هم كالأرواح المنهكة حقًّا. تركت «أنجلينا» نفسها تنجرف بعيدًا عن الحشد واشترت قطعة قماش ملونة، وارتدت حجابًا أزرق لدخول مسجد «دورغوت".

عندها فقط، فهم «فيتو» ما كان يقصد جده «أنطونيو» عندما روى له قصة الإنسان وقصة جوعه، والأشخاص الذين يتضورون جوعًا، إنه جوع الفقراء والمستوطنين واللاجئين، إنه الجوع الجشع.

أكل «فيتو» «الكُسكسي» بشراهة.

في اليوم التالي، جنَّدوا مرشدًا شابًّا اسمه «نامق»، وهو طالبٌ جامعيٌ بدا أصغر بكثيرٍ من شابٍّ في الثانية والعشرين من العمر. كان مجرَّد وسيلةٍ إلهاءٍ بالنسبة

لـ«فيتو»، فالآن وجد شخصًا للتحدث معه. كان «نامق» لطيفًا ومجنونًا بعض الشيء، وشغوفًا بالفن والتسلق، فذهبا إلى القرى البربرية والأماكن الأثرية حتى وصلا إلى مدينة «لبدى العظمى» والبحر.

مروا بالقلاع الريفية الإيطالية، الممرات مفتوحة على مصراعيها، والمباني عليها علاماتٌ باللون الأحمر ليتم هدمها، وهناك محطة سكة حديد قديمة. قالت الجدة:

- من سيعوضنا عما شرق منا؟ كان لدينا بساتين الزيتون وأصدقاء، كان لدينا تاريخ.

فقط قبل المغادرة، ذهبت والدته بحثًا عن آثار «علي». وجدت الشجرة التي التقيا تحتها تحولت إلى جذعٍ قديم ومعوج، وكانت ذابلة ومليئة بالفجوات الداكنة، ووجدت المنزل القديم المبني من الطوب اللبن خارج المدينة.

لا يوجد أثرٌ لخلايا النحل، أصبح المكان مهجورًا، وجدت بابًا من الألواح الخشبية المتعفنة والممزقة التي أغلقت بمسامير صدئة ليس لها فائدة. المكان في الداخل مظلمٌ مثل الإسطبل، قطع من بلاط الجدران المتصدعة مفقودة فينبعث من بينها الضوء. نمت أشجارُ التين الشائك في كلِّ مكانٍ، والسقف منهارٌ، وأصبح الآن مجرد مأوى للطيور.

لعب بعض الأطفال كرة القدم على الرمال. تحدثت «أنجلينا» مع امرأةٍ عجوز ترتدي ملابس صوفية، وتحمل بعض البارود بمناسبة المولد النبوي، وهي جالسة على مقعد سيارةٍ وسط الحقول الساخنة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي سمع فيها «فيتو» والدته تتحدث العربية، كان صوتًا مختلفًا عن الصوت المعتاد وكأنه يخرج من حلقٍ آخر. هزت المرأة العجوز رأسها مؤكدةً موت النحال العجوز «جازيل" منذ زمنٍ بعيد، أما «علي» فيسكن في وسط المدينة في المنطقة المحمية.

كان «نامق» هو من قادهم إلى قصر اليهودية القديم في طرابلس، لكنه لم يرد أن يتبعهم تحت الأقواس وعلى طول الدرج، فهز رأسه وقال:

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

- سأنتظركم في البار عند المظلات المفتوحة خلف برج الساعة.

كانت هناك إحدى العيون المعدنية على الباب، ثم سمعوا طنينًا من الداخل وفهموا أن أحدًا ما يتجسّس عليهم. سعلت «أنجلينا» ومشطت شعرها وهي تحدق في ثقب الباب، بعدها فتحت الباب قليلًا ورأت أنفًا ملتصقًا في صدع الباب المغلق بسلسلة.

كانت المرأة التي سمحت لهم بالدخول ضخمة، ترتدي حجابًا بشكلٍ فوضوي، لا بد أنها وضعته بسرعةٍ حول رأسها. قادتهم إلى قاعةٍ مطليةٍ ذات سقفٍ مرتفع، بها نافذتان كبيرتان بطرازٍ إيطالي مع مصاريع تطلُّ على الشارع. جاء من المسجد المجاور صوت المؤذن لصلاة الظهر، الديكور حديث وجذاب، غير مناسبٍ للبيئة المحيطة، والأثاث مطليٌ بالدهان البلاستيك، والأرائك مصنوعةٌ من الجلد ولها مساند ضخمة.

تمت دعوة «فيتو» ووالدته للجلوس وأحضرت شابةٌ ما صينية عليها علب المشروبات الغازية الملونة، وعلب البرتقال و«الكوكا كولا».

انتظروا حوالي ساعة وهم ينظرون إلى التليفزيون الضخم على الطاولة الزجاجية بجوار نبتة الزينة. كان بعض الأطفال من مختلف الأعمار ينظرون إلى خارج الباب بين الحين والآخر، ولم يتجاوزوا العتبة أبدًا.

وصل «علي» أخيرًا، كان يرتدي ملابس أنيقة، لكن لا يبدو أنه يأتي من الخارج، لم يفهم «فيتو» سبب إبقائهم منتظرين لفترةٍ طويلة. كان وسيمًا وطويل القامة ورشيقًا، وشعره طويلًا وشاربه أسود يظهر من تحت نظارته، ويرتدي حذاء القُفّسين المصنوع من جلد الأيل لونه جملي.

مدّ يده إلى «أنجلينا»..

لم يجلس معهم على الأرائك، بل جلس على كرسيٍ بظهرٍ مرتفعٍ وصلب، ثم وضع ساقيه الطويلتين النحيفتين على بعضهما.

كان يتحدث الإيطالية بشكلٍ جيد.

CamScanner

كان لطيفًا وخلوقًا، ولكنه حازم، لديه تجاعيد كثيرةٌ على خدّيه، وصوتٌ أجش قويٌ حزين. قال شيئًا باللغة العربية لم يفهمه «فيتو».

رأى «فيتو» والدته تنكمش على الأريكة ولم تستطع أن تجلس في وضعٍ صحيح، لقد انزلقت.. لذلك كان عليها أن تعتدل بشكلٍ ما.

لم يعد «علي» يضغط على يده ونظر في عيني «أنجلينا» مباشرةً. تذكروا الأيام الخوالي، والغوص في الساحل خارج القلعة.

لم تسأله «أنجلينا» عن سبب عدم وفائه بوعده؛ لأنها من ناحية أخرى قد نسته أيضًا.

ربما لم يكن ليحدث ذلك أبدًا.

هكذا اعتقد «فيتو» عندما نظر إليها.

كان منزعجًا، اعتقد أنه لو تركهم «القذافي» يكبرون على الشاطئ نفسه الذي وُلد فيه.. لكانت والدته ستذهب في نزهةٍ بين آبار النفط وناطحات السحاب في الصحراء، في إحدى سيارات الجيب ذات اللون البني، وتضع الكحل في عينيها وهي بجانب ذلك الشخص العربي.

كانت تفوح منه رائحةٌ عميقةٌ من خشب الصندل وشيءٍ آخر، لم يحبها «فيتو» على الإطلاق.

Telegram:@mbooks90

لا بد أنه كان ثريًا جدًا. كان للمنزل جوٌ غريب، ربما بسبب قلّةِ الضوء، فبدا وكأنه ضريح.

عندما تذكروا حادثة النحل، وقف «علي» وبسط ذراعيه مثل خيال المآتة، كما فعل في مثل ذلك الوقت.

ابتسمت «أنجلينا» ورفعت يدها وقالت:

- كم إصبعًا ترى؟

خلع نظارته وفرك الهالات السوداء تحت عينيه حتى أصبح شكله كالجمجمة، فنظر إلى «أنجلينا» وقال:

- الآن لا أستطيع تحمل عدم رؤية الأشياء البعيدة.

كان وسيمًا ويداه كبيرتين.

وقف ورجلاه متداخلتان، إحدى قدميه عارية، والأخرى يرتدي فيها ذلك الخف ذو اللون النحاسي من دون كعب.

ومع ذلك.. كانت عيناه ثابتتين ونظراته حادّة، كانتا تشبهان ذلك المنزل الهادئ، ساكنتان مثل ذلك القبو.

إنه وقت الغداء، قدمت المرأتان طبقًا كبيرًا من الحساء. المرأة البدينة كانت الزوجة الأولى، والشابة كانت الزوجة الثانية، كانت ترتدي الملابس الغربية، وفستانًا أزرق ليس جميلًا، وخاتم سولتير بحجم الحجر في إصبعها، وتدخن الكثير من السجائر. بدت حزينة أكثر من المرأة المحجبة البدينة التي كان لديها عينان ماكرتان، وكانت فضولية بشأن كلّ شيء، وعندما مرت أمام زوجها، انحنى قليلًا.

لم تسأل «أنجلينا» عنهما، لقد نظرت إليهما فقط..

قال «علي»:

- الزوجة الثانية مصرية، ولا تحب الجلوس في المنزل، وتود السفر، لكنني مشغولٌ جدًا.

قالت «أنجلينا»:

- إنني مطلّقة أيضًا، ولم أتزوج مرة أخرى.

ابتسم «علي» وصمت طويلًا.

فقالت «أنجلينا»:

- هل ما زلت تقرأ الشعر؟

لم يرد «علي» على الفور، أومأ برأسه وقال:

- ما زلت أقرأ كثيرًا، ولكن فقط عن السياسة.

فكان يعمل لدى الدولة ولخدمة ليبيا، كانت حياته مكرسة لذلك.

نظرت «أنجلينا» إلى غرفة الجلوس وإلى أرضيات الطوب المطلي بالفرشاة والنوافذ الطويلة في مواجهة الشرفة، وقالت:

- أعتقد أنني كنت هنا من قبل..

فكر «علي» الآن كثيرًا، وربما سئم من تلك الزيارة، بدت عيناه بائستين خلف زجاج نظارته.

أصرّ على أن يتذوقوا بضع ملاعق صغيرةٍ من ذلك العسل الغريب.

سألته «أنجلينا» عما إذا كان هذا العسل من خلايا النحل الخاصة به، كانت تعتقد أنه أصبح من منتجي العسل، فهز «علي» رأسه قائلًا:

- إنه عسلٌ مُرٌ من «برقة».

ثم نظر إلى «فيتو» لفترةٍ طويلةٍ وقال:

- هل يعجبك؟

لم يعجب «فيتو».

اندهش «علي» وابتسم وكانت إحدى أسنانه الخلفية من الذهب، وقال:

- مات أسلاف قائدنا في معسكرات الاعتقال الإيطالية في "برقة"، هل تعلم ذلك؟

نهض، ثم قال:

- يجب أن أذهب.

- شكرًا لك.

ثم رافقهم إلى الباب.

في وقتٍ لاحق، في الشارع، عندما نظرت إلى السور الأبيض والفناء، تذكرت «أنجلينا» أن هذا المبنى كان يسكنه الإيطاليون في يومٍ من الأيام، ربما كان هذا منزل «ريناتا"، صديقتها اليهودية من "باذفا".

استجوب «نامق» بينما كان النادل يقدم الشاي بالنعناع، ويدفع إبريق الشاي بعيدًا عن الأكواب الصغيرة بهذه الإيماءة الباردة والغامضة. نظر الشاب المرشد حوله كما لو أن شخصًا ما يمكن أن يعتقله في أيّ لحظة، كان خائفًا من أن يكون هناك جاسوس. كانت الساحة مهجورةً ويهبُّ فيها نسيم البحر الخفيف. عرفه «علي» جيدًا وعلم أنه مهمٌ بالنسبة للمخابرات التابعة لـ«القذافي»، وكان يعرف كتيبته، حيث ركضوا بأقصى سرعةٍ في الشوارع يرهبون الناس، وأخذوا المعارضين من منازلهم فجرًا، وعرضوا قائمة الخونة ومقاطع الاستجواب - في كثير من الأحيان - على شاشات التليفزيون لترويع الناس، وخلال فترات توقف التجارة، قاموا بضرب المعارضين وكانت أعين المعارضين حزينةً للغاية. كان عليهم الاعتراف وذكر أسماء الآخرين، ثم نُقلوا إلى سجن «أبو سليم» ودفنوا أحياءً في تلك السجون خارج المدينة. كان «نامق» من البربر، والعديد من أقاربه مضطهدين، كره القائد البربر؛ فهم لا يستطيعون التحدث بلغتهم ولا كتابة أبجديتهم، فكثيرٌ منهم لم يعودوا أبدًا، وفي أثناء التعذيب، أجبروا على تكرار: «أنا فأر رديء، يحيا «معمر» يحيا «معمر»، لدرجة الجنون.

اغتصب رجال الميليشيات المخمورين، الذين كان لديهم مخزون من الفياجرا والواقي الذكري في جيوبهم، الطالبات.

نهضت «أنجلينا» واختفت لفترة، وعندما عادت، بدا وجهها مصابًا كما لو أنها اصطدمت بشيءٍ ترك بصمةً عليها.

فكر «فيتو» في تلك الملاحظة التي تركتها في المطبخ: «حطم الجدار العاطفي».

ما الذي كان وراء ذلك الجدار؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بحـر الصبـاح

اختبأ «فريد» بجانب والدته على متن القارب ولم يعد يشتكي، فهو يعاني من الجفاف. امتلأت قدماه بالنمل ووصل إلى ذراعيه، فضحك، الآن يمشي النمل بداخله، فهل تلك أرجل التاريخ؟

شعرت «جميلة» بثقل ابنها الذي ينهار، كانت تخبره بأن يخلد للنوم والآن تحاول إبقاءه مستيقظًا، أخبرته بقصة الطفل الذي سيكبر؛ ولكنها كذبة مثل كل القصص.

نفد الماء لفترة من الوقت.

أصبحت شفاه الطفل متحجرةً مثل خشب القارب، و"جميلة" تحدق في تلك النقطة المظلمة المهجورة. انحنت ووضعت بعضًا من لعابها بين شفتي ابنها. البحر الآن كاللغم وكالجحيم فوق رؤوسهم، ارتفعت الأمواج، كانت «جميلة» يائسةً ومذعورة، الآن هي في انتظار ما سيفعله القدر.. وهذا هو الجانب الآخر من التاريخ. أخذت تترقب وتتخيل قطع اللحم وعليها بعض الملح في مكانٍ لم يعد فيه أفق، لا

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

يوجد سوى البحر، بحر الخلاص الذي أصبح الآن كدائرة النار السوداء.

لقد ادّخرت الأموال لتلك الرحلة من الدنانير التي تركها «عمر»، وعملات اليورو والدولارات التي تركها الجد «موسى»، والأوراق المجعدة والملينة بالعرق. أعطتهم تلك النقود من أجل ذلك القارب الذي لا يقوده أحد، وعلب الديزل البلاستيكية التي أصبحت الآن كلها فارغة تقريبًا. لا أحد يعرف البحر، نجا القليل منهم وكانوا كالشحالي.

كان هناك فتًى صوماليٌ مصابٌ بالهذيان، ومصابٌ بمرضٍ جلدي، ولديه بثورٌ تنزف ولا يتوقف عن حكّها، وكان مصابًا بالحمى ومضطربًا كما لو أن روحًا شريرةً تسكنه. لقد تم تجريده من ملابسه، وإنه لمن البشع رؤية رجلٍ عارٍ يحاول المشي فوق الجثث الأخرى. سئم الآخرون منه وأرادوا طرده وصرخوا قائلين:

- الصوماليون جميعهم قراصنة.

بصق الفتى الصومالي في البحر وصرخ قائلًا:

- البحر هو سبب مرضي.

الطين الأبيض يطفو على ساحل «مقديشو»، بسبب تلك البراميل التي خلّفتها سفن العالم الغني. الآن يلوّح بذراعيه وكأنه يحمل منجلًا، كانت وظيفته هي قطع الأشجار وحرقها في الرمال لصنع الفحم، قال ضاحكًا:

- كلُ شيءٍ سيموت، ولن تجد الحيوانات أشجارًا ومراعٍ.

كل هذا بسبب الفحم، لا أحد يفكر في المستقبل، الجميع يفكر في البقاء على قيد الحياة اليوم، ولا يهم إذا تخلّيت عن بلدك، فلا يستطيع الفقراء التفكير في المستقبل.

قال ضاحكًا:

- إننا في عجلةٍ من أمرنا لبيع الفحم المستخرج من الأشجار.

وضعوه في الأكياس حتى امتلأت، وأحيانًا كان يُستخدم لإشعال النيران في السفن. ظهرت أصوات العواء والخدوش، كان الفحم الساخن يتدحرج. رفع الفتى

مسدس الاستغاثة وأطلق طلقة الاستغاثة الأخيرة. هذه المرة ارتفعت عاليًا إلى السماء بشكلٍ لا يُصدق، وبشكلٍ مثاليٍ مثل قوسٍ من القطرات المضيئة.

نظر الجميع إلى تلك الألعاب النارية وشكروا الله لأنهم نجوا من الموت الوشيك، وشكروا ذلك الصومالي الذي أطلق طلقة الاستغاثة. الآن سوف يراهم شخصٌ ما، وستأتي سفينةٌ مليئةٌ بالجنود الذين يرتدون ملابس بيضاء لإنقاذهم، وسيقدمون لهم أطباقًا من الطعام الشهيِ، وكريمات معالجة لفيروس الهربس.

كانوا يحدّقون في البحر في الظلام مثل الحبّار الذي يبحث عن الضوء حوله.

أصبح «فريد» نحيفًا وأخفّ وزنًا، حتى أنه أصبح يشبه عود القصب المستخرج من الأشجار المجوفة. كانت رجلاه عبارةً عن عودَين يتدليان، وفي الأسفل قدمين متسختين، خلعت «جميلة» نعلَيه وقالت له:

- حرِّك أصابعك.

أومأ برأسه، وقد حاول تحريك تِلك القدمين الصغيرتين؛ لإبقاء تلك الأصابع حيّة. أصبحت رائحةُ أنفاسه تشبه الفحم، وصوتُ شهيقه أجش، نبعَ من داخله، أما الزفير فيبدو أنه يخرج من جسمٍ أكبر بكثير، ربما نضج الطفل في أثناء هذه الرحلة.

داعبت "جميلة" جبهَته، وشعره الذي جفَّ بسبب هواء البحر، وأخذت تضغط عليه، فبدأ "فريد" يغلق عينيه. نظرت "جميلة" إلى تلك المساحة البيضاء داخل عينيه وهي تتحرك، الآن هو هادئٌ، كما لو كان على وشك النوم، ويخوض المعركة الأخيرة في اليوم بينما يغلق جفنيه.

لقد كان دائمًا فتى هادئًا، يبدو كرجلٍ صغيرٍ.

تذكرت "جميلة" أنه طلب الإذن منها للتبول في الحديقة، فقد فات الأوان للوصول إلى المرحاض، ثم فتح ساقيه وبدأ في التبول، فطلَبت منه أن يتحرّك قليلًا، لكنه كان يخشى الظلام ويخشى الابتعاد عن ضوء المصباح.

حتى "عمر".. كان يتبوّل من حينٍ إلى آخرَ في الحديقة، ويُخته "جميلة"؛ لأن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحرارة تجعل الرائحة الكريهة تنتشر حتى داخل المنزل. ضحك "عمر" ولمعت أسنانه البيضاء في الظلام.

فعلا ذلك أيضًا في حدائق الجيران، الأب الكبير والابن الصغير، لقد قاما بتلك اللفتةِ الرجوليّة التي تميزهما. وفي بعض الأحيان، قارنا بين تدفُّق البول، وفي أحيانٍ أخرى، قارنا بين الفتحتين المبلّلتين في الرمال حيث تبوّلا.

لا تعرف "جميلة" لماذا تفكر في هذا الشيءِ الغبي.

لديها الكثير من الذكريات المهمة، ولكن بدلًا من ذلك، فكّرت في هاتين الحفرتين من البول في حديقتها، وصراخها حين كانت تقول: "ابتعد! ابتعد! في النهاية ستنتقل تلك الرائحة إلى أزهاري وتجف!".

كانت "جميلة" تتلاشى، ولكن قلبها كان كالمصباحِ المضيءِ الذي يقاوم لتضيء عتمة "فريد"، ولكن إلى متى؟

ذات يوم، ربطَت حقيبةً صغيرةً من الجلد الناعم - تميمة - حول رقبته؛ لطرد الأشباح، ووضعت كلَّ أحلامها فيها.

حينها رأت البحر كبيرًا ورطبًا، لكن لا شيءَ أكثر من ذلك، كان يبدو كالأرض من دون أسلحة، كالهبة. لم تكن تعلم أن الأمر لا ينتهي، وكان ابنها يصرخ طوال الوقت لأيامٍ وليالٍ. كان يتغير وجهها كالأمواج، وذبلت يداها مثل الجذور في العراء، وهي تحمل ابنها الصغير.

لعب "فريد" في المنزل بالكابلات الكهربائية، ثم ترك تلك الأسلاك لوالده.

حاول الأصدقاء في الشّمال الوصول إليهم، وصلوا عن طريق البحر، ولكن بقاربٍ أصغرَ وأسرع. إنهم بخيرٍ الآن، ولديهم غرف غسيلٍ وصالونات تصفيف الشعر الصينية. في البداية، كان الأمر فظيعًا؛ لقد ناموا في الحديقة وتنقّلوا طوال الوقت. الآن سيتم معاملتهم بشكلٍ أفضل، فهم ليسوا مجرد مهاجرين غير شرعيين، إنهم لاجئون يفرّون من الحرب. سيصبح لديهم تصريح إقامةٍ مؤقتةٍ، وسوف يطلبون حقَّ اللجوء، كما يمكنهم البحث عن وظيفةٍ، وتعلم اللغة الإيطالية في الدورات المسائية.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

ربما في يومٍ من الأيام سيعودون إلى منازلهم. سيجلسون وينظرون إلى حياتهم، وسيصبح "فريد" شابًا عريضَ الأكتاف في ذلك اليوم، مثل والده، وسيكون لديه الابتسامة نفسها، وسيجيد التعامل مع الكهرباء مثله، وسيصبح لديه الأصابع الطويلة نفسها، التي تمسك مفكّات البراغي.

الآن الظبي على البحر، لا نعرف كيف جاء، ولكنه موجودٌ على حافة الأمواج الزرقاء، يجلس في وضعٍ ملكيٍّ كما كان يجلس على الكُثبان الرملية، استدار لينظر إلى "فريد" وقرناه اللامعان الدائريّان ثابتان.

حيوانٌ صغيرٌ شجاعٌ ومغرور، له أرجلٌ رفيعة، وعضلاتٌ قوية، وشعرٌ أسود على ظهره يهتز عندما يشعر بالخطر. إنه أجمل حيوانٍ في الصحراء، لديه أذنان تخترقان الصمت، وعينان ساحرتان ولامعتان، وقرنيّات شفافة، ونظرٌ حادٌّ، فيستطيع أن يرى النسور في السماء، والكلاب البرّية المختبئة في الأدغال. في أثناء الجفاف الصيفي عندما تغادر جميع الحيوانات المناطق الصحراوية والسهول الحارة، يظلُّ الظبيُ في مكانه، وغالبًا ما تتغذى عليه آكلاتُ اللحوم الكبيرة، وقد يموت بسبب ذلك. يركض بطريقةٍ غريبةٍ إلى حدٍّ ما، بالكاد يلامس الرمال ويترك أثرَ خطواتٍ صغيرةٍ مستديرةٍ مثل العُملات المعدنية. إنه سريعٌ جدًا؛ لأنه يجب أن يظلَّ على قيد الحياة، لكنه يتوقف بين الحين والآخر للنظر خلفه كما يفعل الأطفال، وهذا الفضول يمكن أن يتسبّبَ في موته. تمّ عضُّه من الحلقِ ولم يقاوم الظبيُ، فاستسلم وترك نفسه ليتمّ جره وقتله، فتغنّى به الشعراءُ العرَب، وذكروا نظراته البريئةَ على أنّها أجمل نظراتٍ في العالم.

في أثناء نومه، فكّر "فريد" في الظبي وعينيه وهما تقتربان من وجهه، وفمه وأسنانه العريضة المستوية وهو يأكل من يده الفستق في الحديقة.

بينما بدا "فريد" وكأنه يحتضر، واصَلَت "جميلة" حملَه وغنّت له؛ لا تريد أن يلاحظ الآخرون؛ فهم في حالٍ سيئةٍ الآن. رأت الجثثَ ملقاةً في البحر، فارق الأشخاص الحياة لكن جثثهم لا تزال هناك. كانت تعلم أنها الطريقة الأمثلَ لِجَعل قلبه يصمد، لكنها كانت خائفةً أن تموت قبل طفلها فيسقط من بين ذراعيها، ويشعر

بالوحدة في ذلك البحر المظلم.

ذات مرة، رأت ثعلبًا صغيرًا في الصحراء، ووالدته ميتةٌ بجانبه، كان وحيدًا ومحاطًا بالحيوانات المفترسةِ الليليةِ التي اقتربت منه وهي تتسلَّل ببطءٍ.

نظرت إلى التميمةِ المعلقةِ برقبةِ ابنها، فهي لم تعد تتحرَّكُ على حلقِه الطويل مثل حلق الحيوانات الميتة.

لن ينجو أحدٌ من هذا القارب؛ إنها آخر قطرةِ وقودٍ ويتعطَّل القارب إلى الأبد.

يكافح الجميع من أجل البقاء على قيد الحياة، غرقوا وانفجرت الرئتان من دون صوتٍ، وسقطت الأجساد في القاع وهي تتأرجح مثل القرود على الأشجار، ومثل المخلوقات البرية التي ينتفخ جسدها في البحر وتمزقها الأسماك بسبب الجوع.

المطعم المطلُّ على البحر فارغٌ.

يوجد فقط اللواء الذي يأكل طبقًا واحدًا من المكرونة التي تركها تحت العريشةِ وهو يقرأ الجريدة.

خرج صاحب المطعم على الشاطئ مرتديًا المئزر الأبيض، والقميص الذي يحمل اسمه، ونظر إلى البحر ويداه على رجليه.

سار "فيتو" على الشاطئ.

كان يوجد قنديل بحر ميت بجوار أوراق السيلوفان.

البحر هذا العام مليءٌ بقناديلِ البحر..

لكنه ليس السبب في عدم قدوم الشياح.

استمر "فيتو" في السير على الشاطئ..

رأى تلك القوارب ذات الرائحةِ الكريهةِ مثل سمكِ الإسقمري، المليئة بالناس والأولاد من شمال إفريقيا، واللاجئين في أثناء الحروب من مخيَّمات اللاجئين، وعمال البريد، والعيون البائسة، والأطفال الباقين على قيد الحياة، ونوبات انخفاض

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

حرارة الجسم، والأغطية رمادية اللون، ورأى خوفَهم من البحر والبر.

لقد رأى حماس هؤلاء اليائسين، وبعضهم يقول: "أريد أن أعمل، أريد أن أعمل، أريد أن أذهب إلى فرنسا أو إلى شمال أوروبا للحصول على وظيفةٍ".

رأى العزيمةَ والنقاءَ، وجمالَ العيون وبياضَ الأسنان.

رأى التدهور والمزارع القذرة..

كما رأى الأولاد مستندين على الحائط، والجنود يخلعون الأحذيةَ والأحزمةَ.

لقد رأى المعونات والملابس التي حصل عليها الأطفال، ورأى الفقراء الغاضبين حقًا؛ لأن "يسوع المسيح" لا يجيب نداءاتهم دائمًا.

لاحظ قلق وخوف الناس من الأوبئة. احتجَّ الناس وسدُّوا الأرصفةَ وتفرَّقوا ثم بدأوا من جديد، ألقوا بنفسهم في البحر في منتصف الليل؛ لإنقاذ هؤلاء الأشخاص اليائسين الذين لا يعرفون حتى كيف يسبحون.

حينها لا تعرف حقًا من تنقذ، وكأنهم مساجين، مثل شخصٍ يسرق تليفونك المحمول، وشخصٍ يقودك إلى الاتجاه الخاطئ وهو سكران، وشخصٍ يغتصب فتاةً ما، وكممرضةٍ تعود إلى المنزل بعد الدوام الليليّ.

لقد سمع "فيتو" أحاديثَ متراكمةً بشعةً، وسمع عن غضب الفقراء على بعضهم بعضًا.

كأنما تنقذ قاتلك، وكأنه نوعٌ من أنواع الصدَقة، لكن لا يوجد هنا قديش، فالعالم لا يحتاج إلى شهداء، بل إلى توزيعٍ أفضل للعدالة.

"أنجلينا" أمام النافذة، تنتظر الطفل الذي لا يعود، لكن لا يهم، فهي تعلم أنه لن يعود يومًا ما، فتلك هي الحياة.

ربما لم تكن أمًا جيدةً، كانت كالسحلية بذيلٍ مقطوعٍ، وكان "فيتو" هو ذيلها الجديد.

لكن كيف يمكنك أن تتخيل ذلك؟

تم إيقاف تشغيل التليفزيون؛ إنه قديمٌ ويعمل بشكلٍ سيئ، ويتأثّر الإرسالُ بسبب الريح والمطر، يجب عليهم تغيير التليفزيون، وتغيير طبق الإرسال، لكن على أيّ حالٍ.. هذا منزلٌ على البحر.

انتظرت "أنجلينا" انتهاء الحرب، تمنّت أن يُقبض على المُمثل ذي الألف وجهٍ وأن يُحاكم.

شاهدت القصفَ الجويّ لحلف الناتو، عادةً لا تُقصف أهدافٌ مدنيةٌ، وتم هدمُ المصنع الذي كان يزوّد المستشفى بأسطوانات الاكسجين.

شاهدت المؤامرات في ساحة "فيردي" المليئة بالمتمرّدين على التليفزيون، كانت مزيّفةً، وأعيد بناؤها في موقع التصوير.

رأت رجال حرب العصابات وهم يرتدون الأقنعة، والأطفال وهم يحملون الرشاشات. مدّت يدها نحو التليفزيون وكأنّها توقفهم.

Telegram:@mbooks90

دُمرت مدينتهم، وهُدمت جدرانها جراء الانفجارات، وتحوّل النخيلُ إلى حطامٍ.

قالت والدتها "سانتا":

- إنهم يُطلقون النارَ علينا.

- نحن شعب طرابلس، لا مأوى لنا، عالقون في البحر مثل هؤلاء الأولاد دون وجهةِ وصولٍ.

رأوا المتمردين وعامةَ الشعب والفتيات بلا حجابٍ، واستمعوا إلى الفتيات يتحدثن في الراديو، وطالبات جامعاتٍ صغيراتٍ يحملن الأسلحةَ الآلية، ويرتدين النّعال البلاستيكية.

رأوا علمَ المقاومةِ القديم..

كما رأوا الأطفالَ المرتزقة، والموالين الصغار المُجنّدين مقابل بضعة دنانير، جلسوا

على ركبهم وأطلق النار عليهم في مؤخرة الرأس مثل حيوانات السافانا.

رأوا المراسلة بالحجاب والبندقية..

ومتخصصي إزالة الألغام عراةَ الأيدي وهم يرتدون سراويلَ قصيرةً ويتعرّقون مثل الفلاحين.

ماذا سيحدث لكلّ هذه الأسلحة بعد ذلك؟

هذا ما فكروا فيه طوال الليل.

سوف ينتقلون إلى مرحلةٍ أخرى من الحرب واستخدام الغاز المسيل للدموع وغاز الخردل، ترسانة الرفع، والصناديق الخشبية المليئة بالرّشاشات والألغام والصواريخ، وفوقها ذلك النقش السريالي، لصالح وزارة الزراعة.

الحقول المزروعة بالألغام، هذا هو الحصاد، في كلّ ليلةٍ ينجو بعض الناس من الجوع والحرب على متن قاربٍ جديد.

إنه يومٌ آخر من أيام الصيف، والأزهار متفتحةٌ وذات بريقٍ. استمرت العاصفة لمدة ثلاثةِ أيامٍ ثم حلّ الهدوء. الشاطئ عبارةٌ عن مكبٍّ للخشب وحطام المراكب التي لم تصل أبدًا، كان عبارةً عن مكبٍّ لما خلّفته الحروب على الرمال. بحث "فيتو" عن بعض القطع وأخذها.

سار على الشاطئ ذهابًا وإيابًا، وسحب ألواحًا ملتويةً وبقايا من السّجاد.

توقف لالتقاط حقيبةٍ جلديةٍ صغيرةٍ، بدت وكأنها واحدةٌ من تلك التي يتم فيها الاحتفاظ بالجواهر. حاول "فيتو" فتحها، ولكنها كانت مغلقةً بإحكامٍ، أدخلَ إصبعًا فيها ولم يجد شيئًا غير نوعٍ من الصوف المبلّل وبعض الخرز، ثم وضعها في حقيبة الظهر مع بقيةِ الأشياء.

في الجزيرة توجد مقبرةٌ للأشخاص المجهولين، كان هناك رجلٌ طيبٌ يجمع الجثثَ التي يتم استخراجُها من البحر، ويفركُ النعناعَ تحت أنفهِ حتى لا يشم رائحةَ الجثث. لقد وضع الصلبان وأزالها شخصٌ ما، لكن لا يهم؛ فإله الفقراء واحدٌ، وكلُّ يوم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ينزل إلى البحر، ثم يقوم بزراعة الثوم البريّ والخشخاش على الشواطئ وبين التلال. سار "فيتو" في منتصف تلك التلال التي لا يوجد بها رياحٌ باردةٌ أو قارصة. البحر ينظف كلَّ شيءٍ، فلا توجد أمٌ تأتي هناك لتبكي، ولا توجد أزهارٌ، فقط توجد أفكارُ الغرباء، والسياحُ الذين يأتون ويتركون ملاحظةً أو لعبة. جلس "فيتو" وتخيَّل العظامَ مثل هيكلٍ كبيرٍ لقاربٍ مقلوب.

فكَّر في السلاحف التي تأتي إلى الشاطئ لتضع بيضَها، فكانت الجزيرة هي ملجأ تلك المخلوقات البحرية. سيفقس البيضُ قريبًا، رأى "فيتو" هذا المشهد، حيث تتجه السلاحفُ الصغيرةُ التي تطارد المدَّ بعيدًا عن البحر؛ لتنقذ نفسها من الموت.

لاحقًا في المنزل، وضع بقايا الطعام في شكل لوحة، وفي صفحة اليوميات كتب باللغة العربية: **كُم قميص، ذراع دُمية.**

إنه شيءٌ ماديٌ وبلا معنى، هو الآن يائسٌ دون أملٍ.

وهكذا سيقضي آخر أيام إجازته؛ في المرأب.

عليه أن يقرِّر ما سيفعله بحياته، هل يضيِّعها أم يجعلها تُؤتي ثمارها بطريقةٍ ما؟

قالت له والدته:

- ابحث عن ذاتك بداخلك أو في مكانٍ ما من حولك، مكانٌ بعيدٌ عن هنا على الأقل.

لم يستطع "فيتو" التحمل عندما أخبرته والدته ذلك، فنظر إلى البحر ولم يتكلم وأدخل يديه في جيوب سترته الصوفية.

إنه غير قادر على اتخاذ أي قرارات، فكر في الأمر لكنه أومأ برأسه؛ ربما سيظل أحمق وربما هو ليس بهذا الذكاء. على أي حال، إنه يحتاج إلى مزيد من الوقت.

حاول "فيتو" جمع الأفكار والتوقف عن ذلك الهروب.

لا يعرف لماذا يفعل ذلك، ربما يبحث عن مكان أو يريد إيقاف شيء ما وربما ليس قادرًا على الوصول إلى وجهته في الحياة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكر في عينيْ والدته وهي تقف على البحر، اللتين تواصلان مطاردة تلك الذكرى المفقودة في عقلها. منذ عودتها من طرابلس، كانت تبحث عن الفرح فقط. وبدأت في طهي فطائر التين والمكرونة المخبوزة وترتيب النباتات في المزهريات. تريد أن تترك له بعض الذكريات، مثل الشعور بأن لديه منزلًا يمكنه العودة إليه وعينيه مغمضتين، ليتنفس قليلًا.

دخلت "أنجلينا" وسألته لماذا لم يأتِ لتناول طعام الغداء. نظرت إلى اللوحة الرائعة المصنوعة من بقايا الطعام البحري وقطع الخشب وبقايا السراويل الملصقة معًا، وقالت:

- انظر إلى ذلك العبث. هل بدأت تفكر في أن تصبح فنانًا؟

هز "فيتو" كتفيه ويداه مليئتان بالغبار، والغراء يغطي شعره. اتكأ على الحائط بالقرب من صناديق الزجاجات القديمة وفرك عينيه بمعصميه وأزال عنهما الغبار.

لم يسمح لوالدته أن تقترب وطلب منها أن تظل على مسافة بعيدة، ثم تحدث إلى نفسه قائلًا:

- منعت تحطم السفينة.

بدأ "فيتو" في جمع الأشياء؛ علبة زرقاء وحذاء.

شخص ما سيحتاجه يومًا ما. وذات يوم، سيرغب الزنجي الإيطالي في مشاهدة بحر أسلافه والعثور على أثر شيء ما، ممر أو جسر معلق.

لا تستطيع "أنجلينا" أن تلتفت وتنظر إلى ابنها فهي تخجل حقًا، ستكون كأنما تتجسس عليه وهو يمارس الحب.

اقتربت من اللوحة الزرقاء الكبيرة.

لمست تلك الأشياء المرصعة والتحف البحرية المغطاة بالملح وحطام السفينة المنحوت في سقيفة الأدوات الخاصة به الذي يترك انطباعًا وكأنه موقع أثري تم اكتشافه وعالم تم إنقاذه.

نظرت "أنجلينا" إلى البحر الذي صنعه ابنها وإلى ما جمعه من الشاطئ ليخلده في التاريخ وإلى المساحة الفارغة في منتصف ذلك العالم.

ونظرت إلى الحقيبة الجلدية المثبتة في المنتصف.

كانت تعرف أنها تجلب الحظ السعيد، لأن الأمهات من البدو قمن بإعدادها ليلًا تحت ضوء النجوم ووضعنها حول أعناق الأطفال ليطردن الأرواح الشريرة.

أدارت رأسها، وفركت أنفها مثل الحيوان وسمعت صوت البحر الذي يشبه صوت تدفق الدم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تذكرت شيئًا..

في أي شهر نحن؟ شهر أكتوبر، حين اغتربوا، وكان شهر ميلادها. فكرت "أنجلينا" حقًا في عدم البقاء على قيد الحياة في ذلك اليوم. إنها واحدة من تلك الأفكار التي تدخل في عقلك ولا تفارقك، فقد صممت على ذلك، وقامت بتسوية أمورها وتسوية الحساب البنكي وسداد جميع الفواتير.

لقد غادر "فيتو"، ربما حينها جربت شعور الموت وقالت:

- لقد قمت بتربيته حتى كبر، والآن يمكنني المغادرة.

نادمة على تلك الأخطاء الكثيرة، لكنها تبدو قليلة حين تفكر فيها ليلًا. في أثناء إفراغ الدرج وترتيب تلك الفوضى، وجدت صورًا لإفريقيا وصورًا أخرى وتذاكر حافلة قديمة ومغلف فحوصات وبعض الأوراق مكتوبة بخط يد رجل نبيل ظن أنه يألف شيئًا ما لبعض الوقت.

ثم كتبت رسالة طويلة إلى "فيتو".

بدأت الرسالة بكتابة:

"ابني العزيز"..

إنها واحدة من تلك الرسائل الليلية التي لا ترسل، وكأنها تقوم بجمع الذكريات كما يجمع عمال النظافة الذين يمرون بالمنزل القمامة ثم يذهبون بها بعيدًا جدًا حيث ليس من المناسب الذهاب.

على الأم أن تتراجع.

كانت قد دخنت سجائر لتنسى تلك الليلة وفي الصباح قامت برمي ما تبقى من العبوة والرسالة وتحررت من بعض الغضب.

بدأت في تنظيف الثلاجة، لقد تخلصت من كل شيء لا يليق بها كالملاحظات القديمة وعبوة من الواقي الذكري منتهية الصلاحية التي لا تزال تحتفظ بها كتذكار لممارسة الحب وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة لتتذكر. إن ذلك الجنون وتلك

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الأشياء السخيفة مجرد أفكار يتم محوها كما تتم إزالة الأتربة من الشرفة.

كانت قد وضعت أزهارًا تعيش طويلًا في المزهريات، وكان البيت نظيفًا في حال عاد ابنها. استلقت على السرير حافية القدمين لترى كيف ستبدو وقد انتظرت طويلًا.

كانت تفكر فقط في "فيتو" وترى وجهه بجانبها.

ثم وقفت عند النافذة.

إنه يوم ميلادها وهي لا تزال على قيد الحياة، بالطبع كانت تشعر بالقلق.

اتصل "فيتو" من لندن، كان يمكنها سماع الضجيج في الحانة الإيطالية حيث كان يعمل، وقال:

- عيد ميلاد سعيد يا أمي.

ثم اتصل بعد نصف ساعة.

- هل علمتِ يا أمي؟ لقد قتلوه.

سمعت "أنجلينا" صوت طلقات الرصاص، أطلق عليه بواسطة رشاش، فقالت:

- من؟ من قتل؟

كانت تفكر في "فيتو" وفي لندن وتلك الهجمات ومترو الأنفاق والساحة المزدحمة أمام معرض "تيت" حيث أمضت أيام الأحد.

- "القذافي"، قتلوا "القذافي".

- أوه.

لقد سقط على أرض مليئة بالزهور والأنوار، سيظل خالدًا.

كانت تلك جريمة أكتوبر.

لم تكن قد دخلت على الإنترنت لترى تلك الكارثة وهروب من فعل ذلك إلى المخبأ. لكنها تعرف نهاية الديكتاتوريين، حينها لا يصبح هناك مكان للهرب إليه، فقط يوجد

الثأر بعد الوفاة ولا توجد سعادة بل مجرد حدث مرعب يدمر الحياة، ثم قالت:

- تلك الذكرى ستصبح رمادًا.

- نحن أحرار، مرحى!

Telegram:@mbooks90